خالد محمد خالد



نحن البشر

المقطم
للنشر والتوزيع

نحن البشر

ظهرت الطبعة الأولى

من هذا الكتاب فى ديسمبر ١٩٥٩

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان ـ عابدين ـ القاهرة

تليفون: ٧٩٥٨٢١٥ ـ ٧٩٤٦١٠٩

فاكس: ٥٠٨٢٢٣٣

email: elmokatam@hotmail.com

خالد محمد خالد





الإهـــداء

إلى الـــذين يحبـــون الجـــنـــس البـــشرى
ويريدون له الحرية، والعدل، والسلام

موضوعات الكتاب

مقدمـــة

أجمل ساعات حياتنا .. تلك التى تغشانا فيها سَكِينة المحبين الوُدَعاء ..

وأوضأ ساعات تفكيرنا.. تلك التى نفكـــــر فيـــها تفكيرا موضوعياً.. نتفوق فيه على الهوى والغرض.

وخير ما نأخذ من الماضى ـ العبرة ..

وأوثق ما يربطنا بالمستقبل ـ الرجاء، والمثابرة .

وهذه الصفحات، ثمرة خواطر مُباركة..أفاءت عليها المحبة.. وتنحَّى عنها الغرض.. وتلقَّت من الماضى دَرسه.. وحَمَلها إلى المستقبل شوق حميم، ورجاء مُثابر..

وكاتب هذا الكتاب يؤمـــــن أن العـــالَمَ قريتُـــه..

والبشريةَ أسرتُه.. ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنَّ على رأس واجبات الإنسان الذى أذِن الله له أن يُفكِّر، ويكتب ـ واجبًا جليلا بقدر ما هو محتوم.. واجبًا يدعوه إلى الاهتمام بمشاكل العالم، كما لو كانت مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها، والتعبير عنها بنفس الحرارة والولاء اللَّذين يتناول بهما مشاكل وطنه، وذاته..

وحين هممت بكتابة هذه الصفحات، لم أسأل نفسى: إن كانت قد فرغَت من مشاكلنا نحن، حتى تُولى وجهها شطر مشاكل العالم..؟

لم أسألها هذا السؤال؛ لأنها كانت قد ارتفعت، ورفعتنى معها إلى المستوى الذى نُدرك عنده وَحدة المشاكل.، والذى أبصرنا فيه حقيقة الوضع الإنسانى فى هذه الأرض.. وعرفنا المفهوم السوِىَّ لكلمة "نحن" .

فـ "نحن" هذه ليست فى التحليل النهائى لها سوى سكان هذا الكوكب جميعًا.

وأنت، وأنا ـ إنما نبحث مشاكلنا "نحن" حين نُدير

خواطرنا على المشكلة الإنسانية بأسرها..

* * *

إن الحرب العالمية الأولى، لم تُعلن من بلادنـــا.. ولم نُعلنها نحن ولم يكن لنا فى أسبابــها دور.. ومع هـــذا؛ فقد كنا نُساق إليها كارهين.. !

والحرب العالمية الثانية، لم نُعلنها، ولم نُستَشَر فيــها.. ومع هذا؛ فقد تساقطت قنابلها فـــوق مدننـــا وقُرانـــا، وسُخرت لها مطاراتنا، وموانينا، ومواصلاتنا، وخـــيرات بلادنا.

ولقد قمنا بتأميم قناة لنا، وتقع فى بلادنا، فإذا العالم كله يشتعل، وكأن القناة تخترق كل بيت فيه..!

وهكذا، فنحن لا نذهب بعيدا عن أنفسنا، حـــين نقترب من العالم كله، ونعيش بوعينا بين مشاكله.

* * *

ولقد انتهيت فى هذا الكتاب إلى أن مصادر التخلف والتمزق فى عالمنا هى:

ـ التجارة، التى تحولت إلى رأسمال يريد أن تكون له الكبرياء فى الأرض ..

ـ الأحلاف، التى تقوم على نُشدان المغانم الظالمة وتحشُد القُوَى لحروب دائمة ..

ـ النظام الطبقى فى الكيان الدولى، حيث ينقسم العالم إلى "دول كبرى" لها كل شىء.. و"دول صغرى"ليس لها من الأمر شىء..

ـ انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنسانية التى كان عليه أن يحرسها ـ إلى المآرب الخاصة،التى كان عليه أن يرفضها.

ولقد استهديت بالتاريخ... ولم أصنع ما صنعه القاضى التركى القديم الذى حكم بالإعدام، ثم قال: والآن نسمع الشهود ...!!

أجل.. لم ألزم نفسى أحكامًا مُسبَقة.بل ذهبت أقرأ التاريخ واستقرئ حركته، حتى إذا انتهيت من الجولة التى رأيتها كافية ـ وجدتنى أخرج بالنتيجة التى حدثتكم

عنها، والتى سترونـــها مبسوطة على صفحات الكتاب .

* * *

ولم يكن من العسير بعد كشف هذه القُوى المثبطـة، أن نـــهتدى إلى العلاج.؛ فالآفة ماثلة فى أن بعضنا يــرى العالم أضيق من أن يتسع له وللآخرين.. ومن ثَم فـــهو يريد أن يعيش وحده.. جاعلا نَهج حياته: "هذا كلـــه لى"..!!

وهذا سلوك ظالم، ومستحيل أيضًا.

فالعالم عالمنا، و"هذا كله.. لنا كلنا"..

ولابد من إدراك هذه الحقيقة.

بيد أن ترك هذا الإدراك للأريحية الخاصة عمل غـير مُجد. ولابد من أن تُصاغ فى مبدأ، وفى قانون .

والمبدأ، والقانون ـ كالماء.. يتلون بلون إنائه . فـــإذا وَقَعا تحت وصاية دولــــة، أو دُول، عـــادت الأخطـــاء مُضاعفة .

من أجل هذا، ينبغى أن يحرس العالم كله هذا المبـدأ،

وهذا القانون.

ولكن كيف تتم المحاولة، وكيف تبدأ..؟

تبدأ بأن يُنظِّم العالم نفسه فى شكل قانونى، يُزكى انتظامه فى النطاق الإنسانى العميم .

ثم...

ثم ماذا..؟؟

معذرة، فقد نسيت أنى أكتب مقدمة.. وكدتُ أستطرد. حتى لكأنى أُعيد تسطير الكتاب من جديد..

فليكن هذا حَسبنا.

ولأترك صفحات الكتاب تروى بقية الحديث.

خالد محمد خالد





قَريتُنــــــا هذه ..









فى قديم الزمان، كان رجل فى نضرة شبابه، يمتطـــى صهوة جواد جَسُور، يقطع الأرض وثبًا من الشـــرق إلى الغرب ـ يغزوها ويفتحها .

كان اسمه ـ"الاسكندر" ..

وكان شعاره ـ"العالم امبراطوريتى"...!

وذات يوم، مات كما يموت الناس. وسكنت أعلامه الخافقات.

ومضت عشرات القرون ...

ووفد على الدنيا رجل آخر ـ قطع الأرض وثبـــا، لكن لا غازيًا ولا فاتحـــا.. بل باحثـــا عـــن المتعبـــين،

والمستعبدين ـ يحطم أغلالهم، ويفكّ إسارَهم، ويلقــى إلى أفئدتهم بكلمة السِّر؛ فإذا هم أحرار منطلقون .

كان اسمه ـ "توم بين" ..

وكان شعاره ـ "العالم قريتي" ....!

* * *

كان "الاسكندر" يحمل سيفًا.

وكان "بين" يحمل قلمًا..

كان "الاسكندر" سليل سادة فاتحين ..

وكان "بين" ممثل البسطاء الكادحين ..

كان "الاسكندر" أيام كان التاريخ طفـــلا يحبــو. أو مراهقا يلهو.

وجاء "بين" والتاريخ يُشارف رُشده .

وعلى الرغم مـــن أن كِـــلا الشـــعارين ـ "العـــالم امبراطوريتي"، و"العالم قريتي" ـ قد هتف بـــهما رجـــلان من الناس ـ إلا أنـــهما لم يكونـــا شـــعار الرجلـــين وحدهما.. بل كانا شعار عصرين، ومرحلتين من التـــاريخ

بينهما تباين كبير.

فاتجاه التاريخ، وروح العصر فى أيام "الاســــكندر" تمثلا فى نزوته تلك.. أن يكون العالم امبراطوريته.

واتجاه التاريخ، وروح العصر فى أيام "توم بين"ـ تمثلا فى إيمانه المضىء.. بأن العالم قريته .

روح العصر ـ أيام "الاسكندر"، كان شديد الولَـــع بالبطل الفرد. عميق الاحترام لحق الفتح ، وقوة السيف..

وروح العصر ـ أيام "توم بين"كان قد فتح عينيـــــه على بطولات الجماهير، وفتح قلبه وعقله لحق الإنســـان، وكرامة"الحياة"..

وهكذا نرى"حركة التاريخ" فى يوم، تحمل الســيف وتشيد القلاع.. وفى يوم آخر، تحمل الفأس، وتتعـــــهد المزرعة..!

وهى لا تصنع هذا عفوًا، ولا اعتباطــــا.. بل وَفـــق قوانين تقودها وتــــهديها، وتمضى بـــها خــــلال تغــير صاعد لا يعرف النكسة ولا الوقوف ..

لقد جاء فى عصر "العالم قريتى" وفى العصور التالية له، من أرادوا أن يرفعوا الشعار القديم"العالم امبراطوريتى".. فهل كان ذلك يعنى أن حركة التاريخ أخطأت ميقاتها..؟؟

كلا.. ولقد كانت صيحة "يين"،"العالم قريتى" فجرًا صادقًا لمراحل جديدة فى تاريخ البشر.. مراحل ستشهد كفاح الإنسان العظيم من أجل بعث"الإخاء الإنسانى" بعثاً واضحاً، أكيدا.

وليس معنى محاولة الماضى التشبُّث بأرضه وسلطانه، أن التاريخ يريد أن يرجع إلى الوراء .

لهذا، سار مبدأ "العالم قريتى" كانسًا من طريقه كل الرواسب وجميع الفُلُول والمخلَّفات، منتصرًا على المحاولات الكثيرة المضادة له.: تلك المحاولات التى قامت قوية، وأُخمدت صاغرة..!

"العالم قريتى" ـ عنوان عالم جديد إذن، بزغ فجره من زمان .

ولقد آن لجيلنا أن يدرك هذا جيدا؛ حتى تخلُص له الحياة وارفة.. عادلة .. آمنة .

وآن لكل"فرد" من البشر أن يحمل تبعاته تجاه هذا الإدراك.

لم يعد من حق أحد أن ينسحب إلى داخل نفسه، ويقول: "ماذا أكون فى هذا العالم"..

ولا من حق أى شعب أن يفعل ذلك .

فكل فرد، مهما يبد متواضع الشأن .

وكل شعب مهما يكن محدود القدرة، مغمور المكانة. أقول: كل فرد، وكل شعب، هو العالَم بأسره..

وأى شعب مغمور قابع فى أقصى مجاهل الأرض.. وأى فرد، لا يرى نفسه شيئاً مذكورا ـ لا يدرى أحد ماذا يكون غدا، شأنهما وشأوهما .

إننا فى عصر الناس.. عصر البسطاء.. عصر الرجال العاديين.

وبين عشية وضحاها ـــ يقفز إلى مقدمة الصفوف

شعب كان قبل قفزته بأيام، مستعبدا مَهيضا..!

ويعلو الرءوس الشامخة، رجل كان قبل عُلُوِّه نكرة مغمورا، لا تقع عليه العين فى زحام الحياة ..

وكم كان "هتلر" سيقهقه ويسخر، لو تقدم منه أحد الناس ـ أيام كان يعمل ـ نقاشا ـ وقال له: أيها النقاش المسكين. اعمل لسلام العالم ما استطعت..؛ فإن سلامه رهن بمشيئتك وسلوكك..

أجل.. كانت هذه النصيحة لو حدثت، ستثير سخرية هتلر، وهو يلوِّن جدار الغرفة بفرشاته لقاء قروش معدودات.. وكانت تستوجب الرثاء لقائلها، وتدمغه بلوثة العقل ..!

ومع هذا؛ فما كان شىء يمثل الحق والواقع مثلما تمثله هذه الكلمات .

ذلك أن هتلر "النقاش" لم يبق "نقاشا" ـ بل حمله تيار الحوادث إلى ذروة الحكم فى بلده "ألمانيا".. وجاء يومٌ، أمسك فيه بمصاير العالم كله.. وكانت مشيئته

وسلوكه، هما اللذان حددا موعـــد الحـــرب، وســاعة الدمار.. !!!

وكذلك تحول الشعب الألماني الذى كان مصفــدًا بأغلال "فرساى" تحول إلى دولة قـــاهرة، آمـــرة.. وإلى "ترسانة" كبرى تروع العالم أجمع بما تلقيـــه إلى بحـــاره، وأرضه، وسمائه، من بوارج، ومدافع وأساطيل..!!

كل "فرد" إذن، له خطره ..

وكل" شعب" إذن ، له دوره..

وكلنا ـ نحن الناس العاديين ـ لنا قيمتنــــا فى هـــذا العالم، ولنا دورنا الأكيد فى بقائه عالمــــا صالحــــا، ووطنـــا طيبًا..

وليس ذلك؛ لأن أيـــا مِنا، قد يمسك غدًا بمصـــاير الأمور فحسب.. بل ولأننا ـ نحـــن النـــاس العـــاديين ـ الخالقون الحقيقيون للحياة الجاعلون لها معنى.. ومـــن ثم، فنحن المسئولون الأولون عنها، وعن مستقبلها ..

ونحن ـ الناس العاديين ـ نُكوِّن الرأى العام الذى بلغ

فى كل الأرض أشده واستوى ـ وأضحى قادراً على فرض كلمته واحترامه .

لم يعد فى عالمنا وينبغى ألا يكون فى عالَمنا مكان لـ"لويس" آخر يقول "أنا الدولة .. والدولة أنا"...

ولا حاكم من طراز "جيزو" يقول:"كل شىء للشعب.. ولا شىء للشعب".!!

وكذلك،لا مكان لإسكندر آخر يقول:"العالم امبراطوريتى"

لا مكان فى عالمنا اليوم لغير العاملين من أجل الحق، والخير والحرية، والعدل، والسلام.

ولقد أذن الله سبحانه للذين كانوا يُستضعفون فى الأرض أن يرثوا مشارقها ومغاربها .

ومنذ عهد بعيد، والتاريخ يولى وجهه شطر هذا المصير الإنسانى الجليل، ويمضى فى خط متعرج، قد ينحرف أحيانا ذات اليمين أو ذات الشمال.. لكنه سرعان ما يعود إلى طريقه اللاحب، ووجهته الصاعدة

الصامدة ..

والكيان البشرى متجه صوب توحيد عالمه، وتحويلـه إلى قرية متلألئة بأضواء الحـــب، والحنـــان، والتقـــدم، والعظمة ..

أجل.. لقد انعقد عزمه على عالم جديد. يتفـــوق على ضعفه ويجاوز نفسه.

عالَم ..

الإخاء فيه طبيعة، لا رغبة ..

والسلام فيه ضرورة، لا صفقة..

والحرية فيه حق، لا منحة ..

والقوة فيه عدل ، لا سطو..

والسعادة فيه مشاع، لا امتياز..

وصحيح أننا نشق طريقنا وسط زحمة هائلـــة مـــن المصاعب والتناقضات، والأزمات.. لكننا سنبلغ المرفـــأ حتما، وسنحقق كل اجتراءاتنا الباسلة الباهرة .

وإن قصة الزحف الطويل، والجليل ـ الذى ســـاره

نوعنا، وقطعته أجيالنا السالفة لتشير إلى الفجر، وتكاد تحدد ساعة الانتصار النهائى على كل العقبات والمثبطات.

* * *

مرة أخرى، نقول: فى قديم الزمان، كان ثمة غاز شعاره"العالم امبراطوريتى".

ومرة أخرى، نقول: إن ذلك الغازى الفاتح لم يكن دخيلا على عالمه وعصره ـ بل كان الابن البكر المطيع لروح جيله، وعصره .

كان حامل الراية، ومنفذ المشيئة .

ولطالما شهدت دنيانا أباطرة، وقياصرة، عبدت الشعوب صلفهم، وشادت بجورهم ـ فى أزمان كان العدل فيها مرادفا للقوة؛ فالعادل هو القوى...وكان الغزو فيها مرادفا للحضارة؛ فالغازى هو الرائد ...!

أزمان تطورت خلالها عادة أكل لحوم البشر تطورا ممتعا! فمن إنسان كان قبل هاتيك الأزمان.. ينضج فى

قدر، ثم يوضع فوق السماط بين صحاف الطعـــام.. إلى ملايين من الناس تجزر فى الحروب وتنحـــر.. ثم تـــترك للعفن، ولجوارح الطير.

حدث هذا.. ولا يزال قوم يحاولون له أن يحـــدث، من أجل النزوة المســعورة المنقرضــة.. نـــزوة "العـــالم امبراطوريتى"..!

أجل.. فكل قيصر غابر، أو معاصر ـ يريد أن تخفــق راياته على أوسع مساحة ممكنة من الأرض.. ويدخـــل فى حظائر رقيقه أكبر عدد ممكن من البشر.. ويضيـــف إلى ثرائه أوفر قدر مستطاع من الغنائم والأسلاب ..!!!

وكان العالم فيما سلف، أكـــثر جـــهلا، وأكـــثر استسلاما وخوفا.. وأهم من ذلك، كان أكثر تبـــاعدا، وعزلة .

وهكذا، كانت استجابته للمشاركة بطيئة وجلـــة، وكل بلد، لم يقع فى شباك الغازى.. لم يكن يهتم بمصـــير البلد الآخر الذى وقع .. حتى يجـــىء دوره ذات يـــوم،

وتأزف آزفته، ويلقفه الغول الذى لا يشبع؛ فيدرك حينئذ أنه أخطأ الحساب، وأن مصيره تقرر فى نفس الساعة التى تقرر فيها مصير أول ضحية سكت عنها، وظن ألا وشيجة بين مصيره ومصيرها..!

لم يكن الناس ـ أيامئذ ـ قادرين على إدراك أن"العالم قريتهم"كان ولاؤهم لأنفسهم لا لعالمهم ..

وهكذا سارت على الأرض فى عنفوان، وغلظة، وكبر. جحافل الإسكندر، وجيوش دارا، وإرهاب جنكيزخان. وقائمة طويلة كليل الشتاء، من الغزاة والجبارين .

حتى جاء يوم صاح فيه الناس: ها..لقد ولد العالم الحديث..

وكان ثمة عالم حديث يطل بوجهه الباسم.. عالم يتسم بالاهتمام بالإنسان، وبحقوقه، وبمصايره.. عالم كان، ولا يزال يحمل رواسب أيام خلت... أيام الحقوق الإلهية المنتحلة للملوك والأمراء، والمستبدين ـ لكنه على

الرغم من هذا قطع، ولا يزال يقطع طريقه وثبا نحو عــالم إنسانى ودود.. نافضا عن كاهله الكثير جدا مـــن أوزار القرون الماضية، وضلالها.

وعالمنا الحديث مسلح بقيم ذكية، تتخذ من كـــل مواطن الضعف مزية ونفعا ..

مثال ذلك، حروب نابليون.. إنــها على قسوتــها وبربريتها، طوحت بمبادئ الثورة الفرنسية وأذاعتــــها.. وأزالت كثيرا من التخوم والحـــدود، وهيـأت الأرض لوحدة محتومة..

فألمانيا ـ مثلا ـ قبل غزو"بونابرت" كانت تتكـــون من "ثلاثمائة" دويلة متفرقة، متباغضة ـ فوحدت يومئذ فى "تسع وثلاثين" حيث كان ذلك تمهيدا لاتحادها الكـــامل فيما بعد على يد"بسمارك"..

و"إيطاليا" أيضا، كانت عند غزو"نـــابليون" اثنـــى عشرة ولاية ـ فوحدت فى ثلاث فقط، حيث تم توحيدها فيما بعد على أيدى ماتزينى، وكافور، وغاريبالدى ..

هكذا اتخذ روح عالمنا الحديث من عدوان نـــابليون مزية، ونفذ من خلال أطماعه إلى تحقيق إرادة التجمـــع، والوحدة .

وفى الوقت الذى كان هناك آل"بوربون" وأســـرة "هابسبورج" ،وعائلـــة"هـــانوفر"،وآل "رومـــانوف"، وآل"عثمان"ـ يملكون ويحكمون ويسودون..كان هنـــاك كذلك، توم بين، وماركس، وأنجلز، وروبرت أويـــن، وسان ســـيمون، وفولتـــير، وروســـو، وتولســـتوى، ومونتسيكيو ـ يقودون القلب البشرى، والفكر الإنســـانى إلى العمل القوى من أجل تحرر شامل عميم ..

وعلى أصوات هؤلاء الأفذاذ، أخذ الوجدان البشرى يصحو، ويفيق .

والثورات التى كانت تقوم على أساس عنصـــرى، صارت تقوم على أساس عميم من حقوق الإنسان وتتجه اتجاها أكثر عالمية وشمولا..

فمثلا ـ حين تثور فى وجه النمسا أمـــم تســـتعبدها

النمسا، ويلعب بمقدراتــها طاغية أوربا "مترنيخ"ـ نــرى شعب النمسا نفسه يعمل بقيادة المثقفين فيـــه ـ علــى إسقاط "مترنيخ" وفتح باب الحريـــة للشـــعوب الــتى تستعبدها النمسا.. وهكذا تلاشى الحـــس العنصـرى القومى ـ أمام الحس الإنسانى العظيم .

وكذلك عندما تداعت أمجاد الإمبراطورية العثمانيــة فوق رءوس طغاتــها الخلفـــاء.. ونـــهضت ولايـــات البلقان"المسيحية" هاتفة بحريتـــها واســـتقلالها.. نـــرى الشعوب العربية "المسلمة" تثور فى نفس الوقـــت علـــى تركيا ـ غير متعصبة"دينيا" لوطن الخلافة الإسلامية.. بـــل ساعية هى الأخرى وراء حريتها واستقلالها.. هادرة مـــع الموكب الذى لا يعرف غير الحرية وجهة وغاية.

هكذا اكتشف عالمنا الحديث نفسه، وأدرك مصيره.

* * *

وجاء العلم ناشرا قلوعه وشرعه.. جـــاء فصحـــح نظرتنا إلى الكون، وإلى الحياة، وإلى أنفسنا وعلاقاتنـــا؛

فإذا نحن على إثر هذا نتدانى، ونقـــترب وإذا الجغرافيـــا الإنسانية تنقلب انقلابا هائلا.

لم يكن العلم يعنى مجرد المعرفة النظرية .. بل كـــان يعنى كل ما تفضى إليه هذه المعرفة من حركة، وكشف، واختراع..

يعنى الأساليب الجديدة فى الصناعــــة، والزراعـــة، والتجارة..

إن تطورات فذة قد حدثت فى هــــذه القطاعـــات جميعا، ومع هذه التطورات قامت أزمات وتناقضات مـــن نوع جديد.. وشد زناد "الربح" إلى أقصاه، فمضى يعالج تضخمه واختناقه بالاستعمار.. بيـــد أن إرادة الإخـــاء والتجمع كانت تتسلل، وتعمـــل، وتدفـــع المعوقـــات، وتلاقى أعداءها فى مواقف فاصلة..

وكانت "حركة التاريخ" وهى تمخر هذا العبـــاب، لا تفتأ تلقى فى روع الناس أن عالمهم هذا واحـــد.. وأن أية كارثة تصيب أقصى شماله، سيصيب وبالهـــا أقصـــى

جنوبه.

وثمة سؤال كان يمكن أن يوجَّه لسكان العــالم فى بداية عام ـ ١٩١٤ـ ولا يجد من يجيب عنه سوى أفــراد معدودين..ويمكن أن يوجَّه اليوم لسكان الأرض جميعــاً دون أن يجد ممن يعرفون الجواب سوى نفر قليــل جــدُ قليل..

فأيُّنا يعرف شخصًا آخر اسمه "جافريلو برنسـيب".. وشــخصًا اسمــه "فرديـنـاند".. ومدينــــة اسمـــها "ساراجيفو"...؟؟؟

إن مئات الملايين منا لا يعرفون عن هــذه الأسمــاء شيئًا.

ومع هذا؛ فإن مئات الملايين من الناس، سيقت مــن حيث لا تشعر ولا تريد، إلى حرب عالمية ماحقة بسـبب هذه الأسماء الثلاثة ..!!!

نعم؛ فإن طالبًا صربيا هو"جافريلو برنسيب" أطلــق رصاص مسدسه على وارث عـــرش النمسـا، واسمــه

"فرديناند" فى مدينة اسمها "ســــاراجيفو"؛ فــإذا هــذه الرصاصات تصبح السبب المباشر، وإن لم تكن الســبب الأوحد، فى قيام الحرب العالمية الأولى التى التهمت حصاد الحضارة.. وسيقت الجموع البشرية من كــل مكــان لتكون لها علفا وقربانا..!

ألم يكن ذلك درسًا من التاريخ ـ أىّ درس ـ ليعلــم الناس أن العالم قرية..؟وأن عود ثقاب واحــد يُمســك بأعواد من الحطب فى مكان ما من هذه القرية، قادر على حرقها جميعاً..؟

قد نتساءل: أى عدالة فى أن يدفع ســكان الكــرة الأرضية ثمن رصاصة غادرة أطلقها "تلميذ" فى مكــان قصىّ بعيد..؟!

لكن العدالة أن يحدث هذا.. والعدل التاريخى هــو الذى فرض على الناس كلهم هذا الفداء ـ لا فداء وارث عرش النمسا؛ بل فداء الحقيقة الــتى رفــض النــاس أن يبصروها، ويأخذوا بــها.. حقيقة أنــهم عائلة واحدة،

فى قرية واحدة ..

حقيقة أنهم ركب سفينة واحدة. إذا ترك أحد راكبيها يلهو بمثقب فى قاع السفينة، فقد استحق الآخرون الغرق والهلكة والضياع .

ولقد كان العالم كله مسئولا عن الأسباب التى تراكمت وتجمعت بين يدى الحرب العالمية الأولى.. وواجب عليه أن يعرف هذا، فإذا جهل ولم يعرف، فلن يشفع جهله له..

إن الجهل بأن السم يقتل، لا يفيد شيئا فى إنقاذ حياة من يتناول السم جاهلا عقباه..

وكذلك جهل البشر بأن تمزق عالمهم مهلكة لهم، لا يفيدهم شيئا.

وهذا هو الدرس الذى يهيب بنا أن نحذقه.

فى عام (١٩٣٠) قامت فى دولة ما أو دولتين أزمة مالية بسبب آثار الحرب، وبسبب اضطراب نظمها الاقتصادية.. فهل ظلت الأزمة محصورة داخل حدود

هاتين الدولتين ..؟

كلا، ولقد طارت كاللّهب حتى غطّت وجه الأرض واجتاحت كل الدول، ودعى العالم كله ليحمل ـ كارهاً ـ وزر تلك الأزمة الطاحنة .

وذات يوم قام فى ألمانيا مستبد أهوج اسمه "هتلـــــر" وقام فى إيطاليا دوتشى مغرور اسمه "موسولينى".

سيّر الأول"فرق العاصفة" تدق الأرض بأحذيتـــــها المختالة الثقيلة..

ووقف الثانى يخطب فوق فوهة مدفع صارخًا "الويل للأمم غير المسلحة"..

فهل عادت شـــرور الطـــاغيتين علـــى بلديـــهما وحدهما..؟

كلا.. وحينما سكت العالم عن غرورهما، بل صفّـق أحيانًا إعجابًا بـــهما، ..طالبته العدالة التاريخية بـــالثمن، وألزمته القصاص وهكذا أصبح ذات يوم، فإذا هو وجبـة شهية، ووليمة دسمة لحرب عالمية ثانية..

"العالم قريتنـــا" ليست مجـــرد شعار جميل.. إنـــها الحقيقة.. وسيظل العالم يدفع ثمن كل خطأ، يرتكبــــه فى أى مكان مجهول، أى فرد مجهول.. ذلـــك لأن العـــالم قرية.. العالم وِحدة.. العالم كيـــان واحـــد كالجسـد الواحد..

ولقد تشابكت المشاكل العالميـــة، حـــتى صـــارت ظروف نشوئها وأسباب علاجها ـ عالمية، لا إقليمية..

وإن العالم اليوم لينادى إلى وحدته، كما لم يناد مـــن قبل.

لقد رأينا حين قامت مصر بتأميم قناتها، كيف وقف العالم كله ممسكا أنفاسه.. وكأنما القناة المصرية، تخـــترق كل شارع فى الدنيا بل كل بيت من بيوتها ..!

إن الناس ـ جميع الناس ـ مدعوون اليـــوم أفـــرادًا، وشعوبًا، وحكومات ـ كى يكيفوا سلوكهم وتفكـــيرهم وَفق هذا الإدراك.

عليهم ألا يفكروا لأنفسهم وحدها.. ولا يفكـــروا

بعقولهم وحدها.. بل يفكروا للعالم جميعه، وبعقل العـــالم جميعه.

هذه هى الضرورة الإنسانية والتاريخية التى كشـفناها بعد طول عناء..والتى لا تقل وثاقة وحتمية عن أى قانون كونى.. ولا سبيل بعد الآن إلى تجاهلها، ولا ســـبيل إلى الفرار من تبعاتها.. فبدلا من أن نكتوى بعاقبة الإفــــراط والتفريط، علينا أن نكشف القوى التى ترفعنا إلى مستوى الحياة فى عالم واحد لا أنانية فيه ولا حرب، ولا استغلال ولا كراهية.

وهذا يقتضى أن نتعقب ونواجه كل عوامل الفرقـــة والتمزق، والضياع .

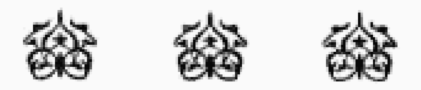
وليس هناك دليل أمين يدلنا على تلـــــك العوامـــل ويفضحها سوى التاريخ، فلنمض معه، حتى نمسك بهــــا غير متنكرة، ولا خادعة ..

التاريخ سجل يطوى كل واقعنا الإنسانى، ويصـــون وثائق تطورنا.. فلنسأله:لماذا نختلف ونتحارب..؟

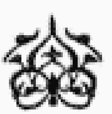
من أى مادة صنعت المناجل التى حصدت الملايين البريئة من صفوف البشر..؟ من الطمع..؟ من البغض..؟ من الجهل..؟ من الغطرسة والكبر..؟ من خلل النظم، وفساد الأوضاع..؟

من بعض هذه، أم من كل هذه، صنعت مناجل الموت والفناء..؟

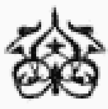
لنسأل التاريخ فى حقبه القريبة، ولنحاول أن نكشف فى ضياء أنبائه، تلك القوى الشريرة التى عملت، ولا تزال تريد أن تعمل على تقويض البناء البشرى، وتشتيت الصف الإنسانى.

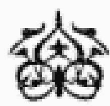


من الحروب الصليبية
إلى الحرب العالمية الثانية









"يا شعب الله المحبوب المختار . . . . "

"لقد جاءت من فلسطين ، ومن القسطنطينية أنباء . . "

"محزنة ، تعلن أن جنسا لعينا أبعد ما يكون عن الله ـ "

"قد طغى وبغى فى تلك البلاد ، بلاد المسيحيين . . . "

"يقتلون إخوانكم ويأسرون ويهدمـــون المذابح . . . "

"فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم !! . . . . . ."

"فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ـ ربنا ومنقذنا ـ "

"الضريح الذى تمتلكه الآن الأمم النجسة . . . . "

"إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم"

"أن هبُّــوا لإنقاذهـــا . . . . "

"فقوموا بـــهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من "

"ذنوبكم .. وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك . . . "

"مجدًا لا يفنى فى ملكوت السماوات. . . . . "

"لا تدعوا شيئًا من أموالكم ولا من شئون أسركم . . "

"يقعد بكم عن القتال.. ؛ فالأرض التى تسكنونــها "

"الآن، والتى تحيط بــها من جميع جوانبها البحار، . . "

"وقُنَن الجبال ـ أرض ضيقة لا تتسع لسكانــها . . . "

"الكثيرين.وتكاد تعجز عن منحهم مايكفيهم من الطعام"

"ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعضكم "

"بعضًا، وتتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم . . . . "

"فى حروب داخلية . . . . "

"إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها فانتزعوها . . "

"من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم . . . . ! ! ! "

* * *

هذا هو النداء الذى وجهه البابا "إربان الثـــانى" إلى شعوب أوربا داعيا إياها إلى الحروب الصليبية . وهــــذا النداء هو الطلقة الأولى فى تلك الحروب.

ونحن الآن فى أوربا.. فى القرن الحادى عشر حيــث

تتكون "أوربا"وتصنع نفسها.. وحيث تتكشف رويـــدًا رويداً جميع القيم التى ستحدد لهـــا اتجاهــها الفكـــرى والسياسى والاقتصادى.، وحيث تبرز إلى المقدمة العوامل التى ستؤثر فى حركة التاريخ، وتدفعها .

ولقد تسأل: ما شأن أوربا بموضوعنا هذا ..؟

ألا فلنعلم أن قصة "أوربا" هى قصة المرحلة الماثلـــة من مراحل التطور البشرى، والتحول العالمى.. ولا سـبيل لمعالجة قضية السلام العالمى.. والإخاء الإنسانى بعيداً عـن أوربا، وعن الأحداث التى صنعت أوربــــا، وصنعتـــها أوربا..

• فالقارة الأوربية ـ هى الوارث الأكــــبر للـــتراث الإنسانى جميعه.. اليونانى.. والمسيحى.. والإسلامى ..

كما أنـــها اليوم، الراحل الـــذى يرثـــه عصرنـــا وأجيالنا.

• والقارة الأوربية ـ هى الوعاء الـــذى تشـكلت داخله هذه الثورة الصناعية الكبرى التى دفعـــت العـــالم

وأشاعت فى حركته الداهمة كثيرًا من التناقضات، وملأت الحياة الإنسانية بفلسفات ومذاهب، وعوامل شتى من الفكر ومن المحاولة ـ هى التى تحدد اليوم للتاريخ وجهته وطريقه .

• والقارة الأوربية ـ هى الجسر الذى تعبره اليوم حضارتنا الإنسانية، مولية وجهها شَطر تطور أمثل، وغد أفضل..

والقوى التى تبث فى الحياة الإنسانية كثيراً من الخير، وتصيبها بكثير من الشر والضر.. ترعرعت فى أوربا وازدهرت ـ مما يجعل دراستها فى وطنها هذا أمرًا محتوما.

وأوربا كقوة سياسية ذات تأثير عالمى تبدأ ـ فى تقديرنا ـ من الحروب الصليبية.. تلك الحروب التى حملت إلى أوربا ثقافة كانت تنقصها.. وفتحت عينيها على ثروات كانت تريدها، وعلى دور تاريخى كانت تتهيأ له.

هذا الدور الذى يبدأ باليوم الذى سارت فيه طلائع

تلك الحروب التى ظلّت تعاود الظهور والالتحام على مدى مائتى عام، بل أكثر من مائتى عام، والتى سميت بالحروب الصليبية ..!

* * *

ونعود إلى البابا "إربان الثانى" يتنقل بين شعوب القارة مذيعًا فيها نداءه السالف .

"يا شعب الله المحبوب المختار. . ."

لقد أخذ "إربان" على كاهله أن يصنع من شعوب أوربا قذيفة يرمى بها ما أسماه "الشعوب النجسة".

وكان من الطبيعى أن يلجأ للحمية الدينية يثيرها، ويستجيشها، فذهب يحدث الناس هناك عن إخوانهم الذين يقتلون فى فلسطين وعن الضريح المقدس الذى يلقى المسلمون فيه رجسهم ونجسهم .

والتاريخ يشهد. كيف كان المسيحيون فى فلسطين ينعمون بالحرية والأمن بين إخوانهم العرب والمسلمين..

وحين قام حاكم مجنون أصاب المسلمين من شره أكثر مما أصاب المسيحين ـ وهو الحاكم بأمر الله..

نقول: حين قام هذا الحاكم فى نوبة من نوبات جنونه بهدم "كنيسة الضريح" نهض المسلمون فى كل الأقطار، وجمعوا مالا جَمًّا وأعادوا البناء المتهدم أروع وأبدع مما كان.

فلماذا وقف البابا "إربان " موقفه ذاك ..؟

وما حقيقة الدوافع لحرب لبثت فوراتها أكثر من مائتى عام..؟!

هنا تتلقى"أوربا" أول وأخطر درس فى حياتها السياسية.. ويتلقاه العالم كله منها .

* * *

• بدأت الحروب الصليبية بطليعة لم تصبر من فرط حماسها و لم تنتظر الموعد الذى حدده"البابا" لبدء الزحف، فسارعت إلى الخروج فى مارس عام ١٠٩٦ بقيادة "بطرس الناسك".

ولم تكد هذه الطليعة ـ التى كان يُنتظر منها الورع والتقوى ـ لم تكد تقطع من الطريق بضع فراسخ حتى دهمها اليأس والجزع. فمضت تسرق وتنهب وتهتك الأعراض فى بلاد المسيحيين أنفسهم مما جعل"بطرس الناسك"يعتزلهم، مشمئزا ساخطا .

- بعد هذه الطليعة، تحركت الحملة الأولى يقودها أمراء أوربا ولا يكادون يبلغون منتصف الطريق حتى يصير بأسهم بينهم شديدا.. ويذهب كل منهم إلى سبيل.يفتح لنفسه فتوحًا خاصة ..

ويَشتَمُّ "إلكسيوس" إمبراطور "بيزنطة" أنهم يريدون "القسطنطينية" المسيحية، أكثر مما يريدون "أورشليم" وذلك لما فى القسطنطينية من كنوز وأموال، فيتقى شرهم بالرشوة ويشترى ولاءهم ـ الذى سرعان ما خانوه ـ بالأموال والهدايا وبعد ثلاث سنوات من زحفهم يبلغون "أورشليم" ويفتحونها.

- وتقوم الحملة الثانية بقيادة "لويس السابع"،

و "كنراد الثانى" إمبراطور ألمانيا، فتسوم بعض بلاد أوربا المسيحية الخسف والعذاب، وعند مشـــــارف القـــدس تنـــزل بـــها هزيمة ماحقة.

• وتتلوهـــا الحملـــة الثالثـــة. يقودهـــا "قلـــب الأسد"وتنتهى بالصلح ..

• ومن بعدها تأتى الحملة الرابعـــة.. فالخامســـة.. فالسادسة..

• ويجىء مسك الختام بالحملة الســـابعة يقودهـــا "لويس التاسع" ملك فرنسا وأسير دار ابن لقمان ..!

* * *

عَبْر هذه الحروب التى دامت أكثر من مائتى عام تخبو تارة وتتسعَّر تارة أخرى.. تكشف الوجه الحق لإحـــدى القوى المخربة التى تعمل لتقويـــض التفـــاهم العـــالمى، والإخاء الإنسانى..

وتبين تماما أن الدين قد استُغلَّ استغلالا رديئًا لإنجاح غزو كانت كل بواعثه اقتصادية عدوانية.. وعرف الناس

أخيرًا ـ أن الصليب لم يكن يقود الناس إلى معارك مقدسة كما ألقى فى روعِهم.. بل إن التجارة هى التى قـــادت الصليب فى خداع ومكر إلى معارك الربح والإثراء.. وإلى مآرب أخرى..

ولسنا ندرى: هل كان "إربان" يعى هذه الحقيقـــة حين دعا أوربا إلى الحرب، وحين قـــال لهـــا فى ندائـــه السالف :

"إن الأرض التى تسكنونها تضيق بكم ،"

"وتعجز عن إمدادكم بكفايتكم من الطعام"

"فاخرجوا إلى أورشليم، فإنها أرض"

"لا نظير لها فى خيراتـــها . . . "

أقول: لا ندرى هل كان البابا "إربان" يعى حقيقـــة الدوافع لتلك الحروب. أم أن أساطين التجارة والمال، قـد أحسنوا استغلاله.

ومهما يكن من أمر؛ فإن إغراءه النـــاس وحضّـــهم على الحرب بسبب من المعيشة والرزق، يدل علـــــى أن

الدين وحده لم يكن كافيًا لإضرام تلك النار .

والآن، لننظر كيف أن التجارة وحدها كانت وراء تلك الحروب التى كادت تعصف إلى الأبد بكل روابط الإخاء والقربى بين الديانتين الكبيرتين ـ الإسلام والمسيحية..؟

إن المدن الإيطالية الأربع ـ البندقية، وجنوى، وبيزا، وأملفى ـ كانت تقوم بتصدير المحاصيل الإيطالية، ومحاصيل البلاد الواقعة وراء جبال الألب..

هذه المدن، اتسع نشاطها، ونَمتْ تجارتها عندما انتزعت صقلية وجزء كبير من أسبانيا من أيدى المسلمين، فخلص غرب البحر الأبيض المتوسط لها.. واشرأبت أطماعها بعد هذا إلى شرق البحر الأبيض الذى لا يزال فى قبضة المسلمين.. وهنا وضعت تلك المدن خطتها للسيطرة على شرق الأبيض المتوسط تمهيدًا للسيطرة بعدئذ على أسواق الشرق الأدنى.

هذا هو السبب الذى أشعل الحروب الصليبية

وفضحه سلوك الحرب نفسها .

• ففى الحملة الثانية، نجد"بلدويـــن" الـــذى ورث انتصارات أخيه، ينصب نفسه ملكا علـــى"أورشـــليم" بمساعدة المدن الإيطالية نظير أن يسلمها يافا، وصـــور، وعكا، وبيروت، وعسقلان.. أى يسلمها جميع المرافـــئ والثغور التى تريدها لتجارتـــها.!

• وعندما دعا القديس"برنـــار" للحملـــة الثانيـــة، يتقاعس عنها "كنراد" إمبراطور ألمانيا.. فتتقدم البندقيـــة، وجنوى، وبيزا.. وتغذى الفتنة الداخلية التى كانت قائمة يومئذ فى ألمانيا.. ثم توعز إليه بأن خير سبيل للقضاء على هذه الفتنة أن يشغل شعبه بالحرب خارج بلاده .

وهكذا تزعم "كنراد" الحملة الثانية...!

• وبعد موت"صلاح الدين" يدعو البابا" أنوســـنت الثالث" إلى الحملة الرابعة، ويرسم بنفسه خطة الحـــرب، وتقضى بأن تتجـــه الحملـــة أولا إلى مصـــر فتســـتولى عليها..ثم تثب منها على بيت المقدس.

وتؤيد"بيزا" و"جنوى" هذه الخطة.. ولكن البندقية تحاول دحضها.

لماذا ! ...؟

إن"البندقية" آنئذ. كانت تربح من مصر أموالا طائلة. إذ تصدر إليها الأخشاب، والحديد، والأسلحة، وتستورد عن طريقها الرقيق.

وانتصار الهجوم المقترح عليها ـ يجعل من بيزا وجنوى شريكتين لها بعد النصر فى تلك الأرباح التى تحتكرها.

من أجل هذا، عارضت الحملة.. ولما أكرهها البابا على القبول تظاهرت به، وأسهمت فى تمويل الحملة وإمدادها بالخيل والسلاح، لكنها فى نفس الوقت، أبرمت مع مصر اتفاقا سريا ـ ضمنت لها فيه تعويق الغزو وإحباطه ..!

• ونحن نعلم أن الامبراطورية البيزنطية، كانت مسيحية بل كانت معقل المسيحية.. ومع هذا، لم تكد

تلغى الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بــها مدينــة البندقية.. حتى تلقت من الجيوش الصليبية نفسها ضربــة قاتلة .

لقد جهزت "البندقية" جيشا قوامــه عشــرة آلاف جندى، وسيرته إلى القسطنطينية ..!

وثار البابا، وأنذر بحرمان كل من يشترك في هـــذا الجيش.. ولكن رنين المال، أصم الآذان عـــن نداءاتــه المقدسة.

وفورا، تحركت إلى القسطنطينية"المسيحية" أربعمائــة وثمانون سفينة.. ودخلها الجيش الصليبي ظــافرا فاتحــا. وعاث فيها تخريبا ، وفسادا، وعربدة.

يقول "ديورانت" في كتابه "قصة الحضارة":

"... وعانت كنيسة أيا صوفيا يومها"

"على أيدى المسيحيين أنفسهم ما لم تعان مثله"

"على أيدى الأتراك فيما بعد عام ١٤٥٣...."

* * *

وبعد.. أليست هذه الشواهد التي سقناها كافية للدلالة على أن الحروب الصليبية، لم تكن صليبية ..؟؟

بلى.. ولقد كانت حروب التجارة، والربح، ورأس المال..

ولا شيء سواها .

وثمة مشاهد أخر، لابد من تدبر مغزاها .

فالحرب الصليبية لم تتخذ المسلمين وأرضهم هدفها الأوحد.. بل صبت عذابها صبا على يهود أوربا .

فالحملة الصليبية الأولى ـ قرر زعماؤها قبل السير إلى أورشليم أن يجهزوا على اليهود بقتلهم وحرقهم .

وبالفعل، زحفت الجيوش محاذية نهر الرين، فأبادت اليهود إبادة شاملة .

وقد تسأل: ولماذا اختار الصليبيون هذه الجهة بالذات..؟

والجواب يكشف لك عن سر الحروب الصليبية كلها ففي محاذاة نهر الرين كانت تقع مراكز التجارة

والأعمال اليهودية .

ولما كان المحركون الحقيقيون للحرب الصليبية هـــم أساطين التجارة والمال فى البندقية، وجنوى؛ فإن خطتـهم تعتمد على التخلص من كل منافس قوى.. واليـــهود فى أوربا ـ هم ذلك المنافس... وإذن فلتجهز عليهم جيـوش الصليب ..!

وهكذا بدأت الحملة الأولى عملـــها ـ وفى مذبحـة "وورمز" وحدها قتلوا ثمانمائة يهودى ـ وأشعلوا النـــار فى حى التجارة والمال .

وفى الحملة الثانية ـ بدأت الجيوش رحلتها بهجــــوم مبيد على يهود أوربا.. ووقف القديس"برنارد" وكـــان معبود المسيحيين جميعا.. وقف ينهى عن قتال اليـــهود.. لكن قوة المال كانت أنفذ من صوته الوديع .

وفى مذبحة أخرى تدعى"يوردو، وانجوليم" بفرنســا، طرح الصليبيون ثلاثـــة آلاف يـــهودى علـــى الأرض مصفدين.. ثم جىء بالخيل يعلو ظـــهورها الفرســـان..

واتخذت من جثث هؤلاء أرضا تطؤها الخيـــل وتجـــرى فوقها فى سباق عنيف حتى هلكوا جميعا ووقـــف البابـــا "جريجورى التاسع" يزمجر، ويلعـــن الصليبيـــين علـــى وحشيتهم.. ولكن البابا الحقيقى للحروب الصليبيـــة ـ كان رأس المال الذى أراد هذا فكان له ما أراد ..!

وفى ختام تلك الحروب توجس التجارة خيفة مـــن فلول الجيوش الصليبية؛ فتغرى بهم الكنائس والحكومات.

وهكذا رأينا"فرسان المعبد" الذين كانوا من أشـــد المقاتلين حماسا واندفاعا ـ يتعرضون لنقمـــة الكنيســـة والحكومات فى كل بلاد أوربا.

ورأينا صكوك الغفران التى كانت تمنح لمن يقـــاتل المسلمين، صارت تمنح لمن يقـــاتل"فردريـــك الثـــانى" وجيوشه المسيحية..!!

انتعشت قوى المال والتجارة بهذه الحروب انتعاشا لم تظفر به "روما" نفسها فى حياتـــها وبذخها.. وغمـــرت أوربا بخيرات لا عهد لها بـــها من قبل.. فطعمت الذرة،

والأرز، والسمسم، والبطيـــخ، والمشـــمش، والتمــر، والليمون، واشتد هيامها بالتوابل.. ولبست الدمقـــس، والساتان، والمخمل والأقمشة المزركشة.. واســـتعملت الطنافس، والأصباغ، والعطـــور..وازدانـــت بـــالجواهر والياقوت .

وتلقت "أوربا" الدرس كاملا من هـــذه الحـــروب وكان يتلخص فى هذه العبارة :

"الحرب تنعش التجارة .. .. " .. ..!!

بعد هذا لم يصبح الشرق مأرب التجار وحدهـــم.. بل سارعت الحكومات، وسارع الملوك إلى الفتح حتى إن معظم الرحلات التى قامت لكشـــف مجـــاهل الأرض، كانت فى الحقيقة رحلات فى طلب الـــثروات بـــل وفى طلب الأفاويه بالذات.

لقد فتنت "أوربا" بالأفاويه فتونا شديدا. حـــتى إن الزنجبيل والقرفة. كانا يباعان بميزان الصيادلة والصاغـــة.. وكان الفلفل الأسود يباع بالحبة.. وثمن الحبة الواحـــدة،

زنتها فضة..!!

يقول"زفايج" فى كتابه"فاتح البحار" ..

"لقد كانت الجرأة التى أوحت برحلات كولمب ،"
"ودياز، وجون كابوت، وغيرهم من عظماء الرواد"
"فى عصرهم ـثمرة الرغبة فى الاهتداء إلىطريق تجارة"
"جديدة مأمونة إلى جزر "البهار" الشرقية" ...!!

* * *

غذت الحروب الصليبية كل قطاعات التجـــارة فى أوربا.. وأفاضت على النشاط المالى حيوية جارفة .

وفى نفس الوقت، رأت أوربا ذلك الرخاء، وذلـــك التقدم، ثمرة من ثمرات الحروب الصليبيـــة.. واعتنقـــت الفكرة القائلة "الحرب تنعش التجارة" ..

وهكذا ستمضى أوربا حياتـــها.. تعالج أزماتـــها بالحروب. وتنمى ثرواتـــها بالحروب ..!!

ولسوف تنهض المصارف والشركات.. وســـوف تبلغ من الضراوة حدودا فوق طاقة الجماهـــير المســـتغلة

المسترفة.. وسوف تهب تلك الجماهير لحماية مصالحـــها فى ثورات تملأ أوربا.. متخذة نـــهجا من فحوى ذلـــك الشعار"كل ثروة سرقة.. وكل ثرى سارق".. وســـوف تحدث انتفاضاتها هذه رد فعل آخر لدى أربـــاب المـــال والمصالح الكبرى فيزداد ضغطهم وتكالبهم ..

وبعبارة واحدة، ستعانى أوربا حياتها.. ولكنها لـــن تتخلى عن هذه الحكمة"الحرب تنعش التجارة".. وهكذا نلتقى بحرب أخرى لها فى التاريخ شهرة قريبة من شـــهرة الحروب الصليبية.. تلك هى "حرب المائة عام".

لقد استغرقت أعمال تلك الحرب مائة عام كاملة ما بين بريطانيا وفرنسا.

والعجيب أن سببها هى الأخرى ، كان التجارة ..

بل إن تاجرًا واحدًا ـ لكنه واسع الثراء والنفوذ ـ هو الذى أجج تلك الحرب.

أجل.. ففى عام ـ ١٣٣٦ـ منعت انجلترا تصديـــر الأصواف إلى "الفلاندرز"، التابعة لفرنسا.. كما امتنعـت

عن استيراد الأقمشة الفلمنكية منها .

وكان عميد هذه التجارة فى "الفلاندرز" رجلا اسمه "يعقوب فان ارتفلد"..

ورأى يعقوب هذا أن تجارته ستبور؛ فأبرم مع "إدوارد الثالث" ملك انجلترا اتفاقاً سريًا يبيح لانجلترا احتلال "الفلاندرز" وتستأنف بعد هذا كل علاقاتها التجارية معها وبدأ تنفيذ الاتفاق بين التجارة والسياسة.. بل بين التاجر والملك.. وبمجرد البدء فى تنفيذه بدأت حرب "المائة عام".. !!!

* * *

وفى أواخر القرن الثامن عشر. تتولى حكومة الإدارة حكم فرنسا، وفرنسا مفلسة خاوية..ولا يكاد بونابارت يفتح لها "بلجيكا" وتذوق طعم خيرات هذا الفتح من فحم وحديد ومصانع..حتى تدفع نابليون، ويدفع هو نفسه إلى فتوح تلو فتوح .

* * *

وتجلو "بريطانيا" مكرهة عن الولايات الأمريكية بعد انكسارها فى حرب الاستقلال.. ولكنها بعد أعوام طويلة من جلائها، تعود لغزوها من جديد، أو تحاول غزوها من جديد حين تراها تتاجر مع فرنسا ـ الأمر الذى يعرض التجارة البريطانية للخسارة والبوار ..!

* * *

وفى الشرق الأقصى، تقود التجارة وأطماع المال أكثر حروب التاريخ خزيا وظلما..تلك هى "حرب الأفيون".

ذلك أنه فى عام ـ ١٧٩٦ـ تسن حكومة الصين تشريعا ينقذ رعاياها من الأفيون، ويحرم على الناس تعاطيه والاتجار به .

وكان "الأفيون" تجارة رابحة تصدرها أوربا وبريطانيا بالذات إلى الصين ..

وهكذا صادرت حكومة الصين عام ـ١٨٣٩ـ عشرين ألف صندوق من الأفيون، مهربة من بريطانيا..

وعندئذ تحرك التجارة البريطانية ـ الدولة والجيش فتزحف أساطيل بريطانيا العظمى ـ ولا تنسوا كلمة العظمى هذه ـ تزحف إلى الصين فتضربـــها وتحتل جزيـــرة"هونـــج كونج" التى لا تزال تحتلـــها حـــتى اليـــوم.. وتنتعـــش الشركات البريطانية يومئذ ببركات حرب الأفيون ..!

ولم تكن تجارة الأفيون وحدها ـ الدافـــع لحـــرب الأفيون.. فإن التجارة يومئذ كانت قد تطورت. فصارت لا تعنى تصدير السلع فحسب.. بـــل وتصديـــر رءوس الأموال لتوظيفها فى نشاط تجارى .

* * *

وتبصر فرنسا نجـــاح حـــرب الأفيـــون، فيســـيل لعابـــها.. وتضغط الشركات الفرنسية على الحكومـــة والجيش.. فتشن هى الأخرى غـــزوا لبـــلاد الصـــين.. مفسحة للتجارة الفرنسية مكانا خصبا.

وبعد فرنسا تتقدم روسيا القيصريـــة مدليـــة هـــى الأخرى دلوها..!

وتضج اليابان من سوء استغلال أمريكا وبريطانيـــا لموانيها التجارية.. وتـــهم باتخاذ الإجراءات التى تنقـــذ اقتصادها من الصادرات المتدفقة عليها كالسيل.. والعملة الأجنبية الهابطة عليها كالدمار فتتحرك أساطيل مشـتركة من أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وهولانـــدا..فتغزوهـــا. وتدعم هناك مصالحها التجارية.

* * *

ولقد فتحت الهند بشركة بريطانية ... !!

وفتحت مصر بأموال روتشيلد...!!

بل إنه فى عام "١٨٥٠"سيرت بريطانيـــا أســـطولها الكبير الوقور الأفخم لمحاصرة اليونان من أجل ديون أحد المرابين الإنجليز ..!!

إن كل فتوح أوربا وغزواتـــها ـ كـــانت فتـــوح التجارة، وغزوات رأس المال .

وكلما ازدهرت التجـــارة. ازدادت حاجتـــها إلى الحرب. فالازدهار التجارى، يسبب ازدهارا صناعيـــا.

ويزيد الإنتاج زيادة مبهظة تتطلب المزيد من الأسواق، والمزيد من الخامات.. والأسواق والخامات. لا تباع عند العطار(!) والظفر بها يتطلب الاستعمار، والاستعمار وسيلته الحرب، والقوة، والسطو.

وهكذا ازدحم القرن التاسع عشر بالحروب التى قادتها أطماع التجارة والربح .

فإذا أهلّ القرن العشرون، وجاءت الحرب العالمية الأولى، أبصرنا بين يديها الأسباب التى هيأت نشوبها. وعلى رأس تلك الأسباب منافسات التصدير، والأسواق، والمواد الخام .

إن تراكم الإنتاج أنجب الأزمات، وأفرز الكساد.. وفى ضباب الكساد والأزمة، تتلاشى التجارة الصغيرة، وتقع بين فكى التجارة الكبيرة، وتتربع على العرش شركات الاحتكار، وينفسح المجال لملوك المال، وأقطاب الربح.. وبين هؤلاء تقوم منافسة أخرى لكنها عارمة القوى، حادة الأنياب، خطيرة النتائج. لأنها لا تتحرك

وحدها ـ بل تحرك معها الحكومات والجيوش وهنا تقوم الحروب.. وهنا قامت الحرب العالمية الأولى.. حين اصطدمت مصالح الشركات والاقتصاد بين الدول المتقاتلة على المنافع ـ المتنافسة على النهب ..!

وعلى الرغم من الكوارث التى أنزلتها بالبشرية، تلك الحرب فإن ملوك المال لم يزدادوا بها إلا نعمى.. وإلا اقتناعا بأن الحرب تنعش التجارة.. وهكذا لم يحاولوا أن يطامنوا من جشعهم حتى لا تتعرض البشرية لمحنة أخرى.. فساروا بالدنيا إلى كارثة الحرب العالمية الثانية.!

وبين يدى هذه الحرب أيضا تجمعت ظروف نشوبها، وعلى رأس تلك الظروف نفس الآفة، ضراوة الربح ورأ س المال.

فألمانيا، أخذت صناعاتها تغزو الأسواق فى تفوق ملحوظ وإنتاجها زاد ونما.. ونجاحها هذا ضاعف من حاجتها إلى المواد الخام لتصنع. وإلى الأسواق لتصدر، ومثل ذلك تماما ـ اليابان، وإيطاليا.

قبيل الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا ينقصـــها من المواد الخام اللازمة لكافة الصناعات أربـــع مـــواد لا غير.

بينما ينقص ألمانيا، ست وعشرون مادة.

وينقص إيطاليا، ثنتان وعشرون مادة .

وينقص اليابان، تسع عشرة مادة.

وهذه المواد التي تنقص تلك الدول الظامئة الطامعة ـ من حديد، ونحاس، وصفيح، وفحم، وبترول،ومطـــاط وقطن، وخشب، وصوف... الخ.

هذه المواد، توجد متفرقة فى أقطار شتى من الأرض، تستعمرها دول أخرى مثل بريطانيا، وفرنسا ..

فهل تغلق الصناعات فى ألمانيا وإيطاليـــا واليابـــان، أبوابـــها؟

هل يحنى ملوك المال فى تلـــك البـــلاد رءوســـهم ويستسلمون.؟

كلا... ولابد من صنع وإن طال السفر..

وهكذا تأخذ ألمانيا "الرين والسار" ثم تخطف النمسا وتشكوسلوفاكيا..وتخطف إيطاليا الحبشة..وتغزو اليابان الصين.

ولقد أعلن الدوتشى قبل غزو الحبشة أن إيطاليا فى أشد الحاجة إلى القطن والبن.. ولهذا ستذهب إلى الحبشة..

وفى هذا الوقت، كانت أمريكا تأمر زراع القطن فى بلادها أن يتلفوا أجزاء كبيرة من الأرض المزروعة قطنا حتى لا تتسبب وفرة المحصول فى خفض السعر ..

وكذلك .كانت البرازيل، تلقى إلى جوف المحيط بملايين الأطنان من محصول البن حتى لا ينخفض سعره بسبب وفرته .

انظروا ...!!

بلاد تتلف المحاصيل، لكثرتها ولكى تضمن سعرا أعلى وأخرى، تسوق أساطيلها وجيوشها لتستعمر بلدا حرا تسد بإنتاجه جوعها إلى القطن والبن.. القطن الذى

يتلف فائضه فى أمريكا..والبن الذى يغـــرق فائضـــه فى البرازيل...!!

وليس يقتصر وباء التجارة والرأسمالية على إشـــعال الحروب، ونشر الاستعمار. بل هى قبل هذا تعطل حركة التاريخ بمساندتـــها القوى الرجعية وتأييدهـــا المطلـــق للفاشية.

حدث هذا فى إيطاليا عام ١٩٢٠ حين قام نصـــف مليون عامل بالإضراب احتجاجًا على الظلـــم الواقـــع بـــهم من أصحاب المصانع .

يقول نـــهرو فى كتابه "لمحات من تاريخ العالم":

"وأخذ أصحاب المصانع يفكرون فى خطة للانتقام "
"ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى . ."
"وكان أول من فكروا بالاستعانة بـــهم، جماعة "
"من المغامرين بقيادة ـ بنيتو موسولينى ـ أطلقت "
"على نفسهاـ الفرق الفاشيةـ وأخذ كبار الرأسماليين"
"وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه الفرق"

"الفاشـــية،ويحـــاولون اســـتخدامها فى مقاومـــة

الاشتراكية"

وحدث مثل هذا فى ألمانيا كذلك .

يقول "نـــهرو" فى نفس الكتاب :

"وقد نجح هتلر نجاحًا كبيرًا فى الاحتفاظ بين يديـــه"

"بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات . . "

"واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة . . ."

"تتحالف مع أصحاب المصانع، وملاك الأراضى "

"الكبار . . . ."

"وسبب هذا، أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر، "

"وزودوه بالمال لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة . . "

"الرأسمالية، يشكل أكبر عائق فى طريق الاشتراكية "

" العلمية الصحيحة . . . . "

* * *

ومثل ذلك أيضًا حدث فى أسبانيا..فوراء الجـــنرال

فرانكو ـ كان أصحاب الإقطاع الذى قررت حكومة الجبهة الشعبية تصفيته، يقفون ويتآمرون.. وكان الرأسمال الأجنبى ـ البريطانى والفرنسى ـ يذهب فى تأييده وتعضيده مذهبا بعيدا. لأن المناجم الأسبانية الكبرى كانت جميعها تستثمر برءوس أموال بريطانية وفرنسية.

* * *

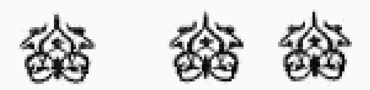
ما مغزى هذه العجالة التاريخية التى سردناها..؟

هل نلغى التجارة..؟؟

هل نوقف نشاط المال، ورأس المال..؟؟

سؤالان وجيهان.. والإجابة عنهما آتية.. ولكن لنذكر هنا.. أن أساليب التجارة ورأس المال.. تقف على رأس الأسباب التى تمزق عالمنا.

ولننتقل الآن إلى آفة أخرى، هى بهذه وثيقة الصلة.. وهى أيضا لا تقل عنها ضراوة وفتكا.



من الحلف المقدس
إلى ميثاق الأطلسى









إذا بقيت الأخطاء دون تصحيح تعاقبت فى تسلسل حتمى لا مفر منه.

والخطايا، ينادى بعضها بعضا، وكلما تجمعت خلق تجمعها هذا ظروف نموها واستمرارها .

والتجارة فى حد ذاتها. لم تكن خطأ ولا خطيئة.. ولكن طريقتها فى العمل، وتحولها إلى قوة احتكارية طاغية، وغازية، جعل منها خطيئة كبرى .

ولقد أنجبت الخطيئة سلالة طويلة من الأبناء والحفدة.. وأكثر فلذاتها شرا، وضرا ـ الأحلاف..

وعبر التاريخ سار الوالد وما ولد.. سارت التجارة

والأحلاف ليفرضا على عالمنا. إرادة الشر والنزاع، والحرب .

ولقد عرفت التجارة أهمية الأحلاف إبان الحروب الصليبية أيضاً.

فالمدن الإيطالية التى كانت تتزعم الاقتصاد الأوربى، والتى رأيناها تقف وراء الحروب الصليبية.. كان الخلاف كلما نشب بينها، عالجته بلباقة الحريص على المغانم المشتركة. والمصير المشترك .

وسنكتفى هنا بملاحظة سير الأحلاف خلال الأعوام المائة التى سبقت الحرب العالمية الأولى.. تلك التى بدأت عام ـ١٨١٤ـ إثر هزيمة نابليون ..

إن الدرس الذى نتلقاه عن تلك الأحلاف فى الحقبة المذكورة.. أعنى منذ ـ ١٨١٤ـ حتى يومنا هذا ـ لهو درس نافع وعظيم .

وسنرى كيف كان سير الأحلاف من عام ١٨١٤، إلى عام ١٩١٤، يتجه حتما إلى تلك الحرب الكبرى ،

بعد أن أشعل فى طريقه إليها عشرات الحروب المحلية ...

سنرى كيف أن الحرب العالمية الأولى لم تعلن عـــام ـ١٩١٤ـ.. وإنما أعلنت عام ـ١٨١٤ـ،ونشبت عـــام ـ ١٩١٤ـ.

لقد اتجهت ـ أوربا ـ فى سُعار شـــديد إلى سياســة الأحلاف بعد هزيمة ـ نابليون ـ وسارت الأحلاف جنبًـا إلى جنب مع الاحتكار الطامع .

بعد أن دخل المنتصرون على نابليون مدينة باريس ـ قرروا، وكانوا روسيا ـ بروسيا ـ النمسا ـ بريطانيا، أنهـم اجتمعوا لتوثيق الأواصر التى تربط الحلفـــاء، ولحمايــة السلام .

وفى مؤتمر ـ فيينا ـ الذى تلى اجتماع ـ شــومون ـ كادت أطماعهم المتصادمة تعصف بهم وبالمؤتمر .

وفى عام ـ ١٨١٥ـ دعا "اســكندر الأول" قيصــر روسيا، إلى "الحلف المقدس".. راجيًا أن يجــىء هــذا الحلف تصحيحاً للموقف كله.وبداية لعهد جديد يقــوم

على السلام والخير، وفى نفس الوقت يصـــون وحـــدة الحلفاء الكبار الأربعة، لتزجر هذه الوحدة أى نـــابليون آخر تنشق عنه الأرض ذات يوم .

وانعقد الحلف المقدس، ووقعته دول أوربا، وتعـــهد المشتركون فيه أن يكون رائدهم "العدل، والإحســـان، والسلام"..

وعلت أهازيج البشائر، بأن القرن التاسع عشـــر، سيكون قرن السلام والرشاد ..

فهل كان كذلك حقًا ..؟؟

عجبًا.. لقد جاء القرن التاسع عشر، أكثر القــرون ازدحاماً بالحروب.. وأكثرها إيغـــالا فى الاســتعمار.. وأكثرها تحدياً للعدل وللإحسان وللسلام ..!!

فخلال هذا القرن ..

خاضت"بريطانيا" حروبـــاً كثـــيرة فى إفريقيــا.. وحاربت إيران مرة.. وأفغانستان مرتين.. وخاضت ضد الصين حربين.. وضد بورما ثلاث حروب.. وخـــاضت

هى وفرنسا وروسيا حرب القرم .!

وشنت فرنسا حروبا ظالمة فى شمال إفريقيا، واستولت فيها على الجزائر، ومراكش، وتونس.. وشنت حرباً أخرى فى إفريقيا الاستوائية، والهند الصينية، واستولت عليهما..!

وخاضت روسيا القيصرية ضد تركيا ثلاث حروب.. وضد إيران ثلاث حروب أخرى.. وشنت.. على الصين حربا استولت فيها على ـ فيلاديفوسك ـ..!

وحتى إيطاليا، التى كانت تحتلها النمسا، لم تكد تتحرر من مستعمرها حتى شنت هى الأخرى حربا ضد الحبشة احتلت فيها ـ إرتريا ـ..وحربا ضد تركيا، واستولت على ـ طرابلس ـ..!

ولم تشأ "بروسيا" أن تقف متفرجة، فحاربت النمسا.. ثم تحرشت بفرنسا، وحاربتها، وأخذت ملكها أسيراً، واستولت على الألزاس واللورين.. واستمرأت الحرب فنقلتها إلى الصين وإفريقيا ..

وأدْلت اليابان دلوها، فشنت على الصين حربا ..!

وعزّ على النمسا أن تفقد إيطاليا، وألمانيا.. فيممت وجهها شطر البلقان، واشتبكت مع تركيا..!

هذه هى "حصيلة" القرن العشرين من السلام، ومن العدل، ومن الإحسان ..."!!!

إن أوربا التى صممت عام ١٨١٥، أن تمنع قيلم أى بونابارت آخر يغزو ويفتح ويملأ الأرض دما وفسادا ..

أوربا هذه.. تحولت كلها إلى معامل تفريخ تتنافس فى تفريخ "بونابرت" لا حصر لها..!!!

والآن، لننظر كيف حدث هذا، وكيف مُلئ القرن التاسع عشر بالحروب، وبالبغى ..

وقبل هذا، نسأل: لماذا تقوم الأحلاف..؟؟ إنها قطعا لا تقوم لحماية الخير المشترك للناس جميعا.. إذ لو كانت هذه غايتها، لانتظم الحلف جميع الدول، وجميع الأمم.. وحلف من هذا النوع لا حاجة بالناس إليه لأن منظمة دولية تلتزم قواعد الحق والعدل والقانون كفيلة

بتحقيق الخير المشترك للشعوب ..

ولكن الأحلاف تقوم بين جماعة يريـــدون الظفـــر بغنائم مشتركة..

ولما لم تكن الدنيا، هى هذه الجماعـــة وحدهـــا.. فسيقوم فى بعض أركانـــها الأخرى لا محالـــة، جماعـــة أخرى لها مصالح مشتركة، فتنتظم فى حلـــف آخـــر.. وهكذا..

وهذه الأحلاف تشد أزر البغى والسطو لأن الدولـة التى لاتقدر على البغى منفردة..تواتيها الفرصة حين تجـد لها حلفاء ونصراء .

ولعل النـــزاع المرير الذى قام بـــين "كليمنصـــو"، و"ولسون" فى مؤتمر الصلح نشأ عن إدراك "كليمنصـــو" لهذه الحقيقة.. حقيقة أن فرنسا لم تـــهزم ألمانيا إلا بقـــوة حلفائها الكثيرين، أمريكا، وبريطانيا، وروسيا، وإيطاليـــا، وغيرها..

وهو غير متأكد من أن تتاح الفرصة لفرنسا مـــرة

أخرى...؛ فهؤلاء الحلفاء التقوا على منافع ـ لامبـادئ.. وقد تتضارب المنافع غدا؛ فلا يتفقون ..

وهكذا صمم على إرجاء النظر فى تشكيل عصبـة الأمم كما يريد "ولسون" حتى ينتهوا أولا من تسـويات الحرب، وحتى تحدد فرنسا غنائمها منها .

نقول: إن الأحلاف تقوم لتحقيق مـآرب خاصـة لمجموعة الدول المتحالفة. وهى بـهذه المثابـة لا تفـرز سوى عداوات وريب. وتحرض على مقاومتها، وتحـض على محاكاتـها.. كما أنـها بقيامها لحماية مصالح غير مشروعة، ومواقف عدوانية غير عادلة.. تتخـذ غالبـا نـهجا مضادا لحقوق الإنسان .

وهكذا لم يكد "الحلف المقدس" يبدأ متوخيا المبادئ الخيرة، حتى عملت بريطانيا على إخفاقـه، فرفضـت توقيعه.. ثم عملت جاهدة لتحويله إلى حلف آخر باسـم "الحلف الرباعى" أعضاؤه الدول الأربـع نفسـها.. ولم يخجل أصحاب هذا الحلف من أن يقرروا أن الغرض منه

هو"مقاومة المبادئ والحركات الثورية"..!

مع أن المبادئ والحركات الثورية يومئذ كانت تعني محاولات الأمم الصغيرة، والشعوب المستعبدة أن تتمتع بحريتها واستقلالها.. وتغادر مكانها كحِلية فى تيجان الملوك والأباطرة الذين كانوا يستعبدون معظم شعوب العالم يومذاك.

وتحول "الحلف الرباعى" بدوره إلى حلف آخر هو"المحفل الأوربى" وفى هذا الحلف ظفر طاغية النمسا"مترنيخ" بجر أعضاء الحلف جميعهم إلى قمع كل الحركات الجماهيرية الساعية إلى الديمقراطية، والحرية ..

وهكذا أثمر هذا الحلف الثورات فى كل أوربا.. وهيأ أسباب حروب كثيرة ستنشب فى كل مكان، حتى تفضى آخر الأمر إلى الحرب العالمية الأولى .

* * *

فى عام ـ ١٨٦٢ـ نلتقى بـ"بسمارك" واقفا يخطب فى البرلمان البروسى ويقول:

"إن تخومنا الحالية كما أقرها مؤتمر فيينا غير ملائمة"
"لنا.. وعلى بروسيا أن تستجمع قواها، وتحل"
"مشاكلها بالدم والحديد . . . . . "

وتبدأ فعلا جولة الدم والحديد. التى أنجبتها أحلاف فيينا وشومون، والحلف الرباعى، والمحفل الأوربى ..

يبدأ بسمارك بالنمسا.. ويجد نفسه فى حاجة إلى قوى تؤمن مستقبل الحرب بالنسبة له.. فيلجأ إلى الأحلاف ـ يحالف روسيا القيصرية ويحالف إيطاليا، ويضمن حياد فرنسا وبريطانيا.. ثم يضرب ضربته ..

وتنتهى الحرب بفوز بسمارك.. فيولى وجهه شطر فرنسا ويهزمها هزيمة ساحقة ..

ويتلفت القيصر، فيرى أن بسمارك قد أحسن استغلال تحالفه معه.. وأنه يبطش لا بقوته وحدها.. بل بقوة الحلف الذى يربطه وروسيا.. فيقرر هو الآخر أن ينتفع بمزايا هذا الحلف.. وفعلا يتقدم ويعلن الحرب على تركيا .

وفيما بعد تهتبل إيطاليا الفرصة، فتهاجم هي الأخرى تركيا، وتستولى على طرابلس ..

* * *

وينشأ حلف جديد، اسمه "حلف الأباطرة الثلاثة" بين قيصر روسيا، وامبراطور النمسا، وامبراطور بروسيا.

وتتصادم المصالح بين روسيا والنمسا. فيتقوض الحلف ويقوم مكانه حلف "ألمانيا ـ النمسا".

ثم يقوم حلف بين بريطانيا وإيطاليا.. تبارك انجلترا احتلال إيطاليا لطرابلس.. وتبارك إيطاليا احتلال بريطانيا لمصر..!!

وتنضم النمسا لهذا الحلف ..

ويحدث رد الفعل؛ فتسارع فرنسا وتبرم حلفا مع روسيا.

وفى نفس الوقت تبرم اتفاقا سريا مع إيطاليا، المشتركة فى حلف مع بريطانيا والنمسا.. ويقوم هذا الاتفاق السرى على أن تحتل إيطاليا تونس، وتحتل فرنسا

مراكش..!!

وتفاجأ بريطانيا بخيانة حليفتها إيطاليا.. فتسارع إلى محالفة فرنسا.. وتبرم معها الاتفاق الودى المشهور عام ـ ١٩٠٤ـ ويقضى بموافقة بريطانيا على احتلال فرنسا لتونس. واعتراف فرنسا بمركز بريطانيا فى مصر .

وتطمع بريطانيا فى مزيد من الغنائم والنهب.. فتبحث عن حلف جديد، ما دامت الأحلاف هى الطريق الأمثل لهذا ..

وهكذا تنشئ مع روسيا حلفا عام ـ١٩٠٧ـ يقتسمان به بلاد الأفغان، والتبت، وإيران ..!!

وعند هذه النقطة يقف العالم كتلتين :

ألمانيا. إيطاليا. النمسا ـ فى جانب

بريطانيا . فرنسا . روسيا ـ فى جانب آخر

وفى هذين الحلفين تبلورت كل الأحلاف السابقة. بما تنطوى عليه من غدر ولؤم ووصولية.. واقترب يوم الفصل ..

وهكذا لم يطلع صباح ٢٨ يولية عام ١٩١٤، حتى كانت نواقيس الحرب العالمية الأولى تقرع مرجفة مزلزلة.

* * *

إن هذه اللقطة التاريخية التى سردنا فيها تسلسل الأحلاف ليست خالية من المغزى ..

وإن مغزاها لواضح مبين.. فهى ترينا كيف أن الأحلاف دائما أقرب الطرق إلى الحروب.. وكيف أنها تغرى بالحروب المحلية الصغيرة بين دولة وأخرى.. ثم لا تلبث حتى توقد نار حرب عالمية كبرى .

حدث هذا على النحو الذى أسلفنا ذكره بين يدى الحرب العالمية الأولى ..

وسنرى الآن.. نفس الشئ يتكرر وتتكرر معه نتائجه من عام ١٩١٩ حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

فعندما اجتمع ولسن، ولويدجورج، وكليمنصو فى مؤتمر الصلح لم يختلف مؤتمرهم كثيرا عن مؤتمر "فيينا" الذى انعقد قبلئذ بمائة عام بين اسكندر الأول،

وفردريك، ومترنيخ، وكاسلريه..!

ولم تشفع عظام خمسة وعشرين مليونا من ضحايا الحرب العسكريين والمدنيين.. لم تشفع لدى السادة المجتمعين ليحسنوا الإفادة من المحنة وليضعوا أسس سلام وعدالة.. بل إن"ولسن" نفسه بروحه الطيبة الخيرة. وبمبادئه السامية العادلة، صار موضع مناورات المؤتمر، وتندر المؤتمرين، وهدفا لإساءة حلفائه، سيما كليمنصو العنيد ..!

وراحت أوربا تنشئ أحلافا تلو أحلاف مهيئة الأسباب لحرب عالمية أخرى .

فسمعنا عن اتفاقية "سايكس بيكو".. واتفاقية "لويدجورج ـ كليمنصو" بشأن سوريا ولبنان ..

وسمعنا عن حلف مناهضة الشيوعية بين ألمانيا واليابان ـ عام "٣٨".

واتفاق الجنتلمان..بين إيطاليا وبريطانيا ـ عام "٣٨".

والحلف الدفاعى الهجومى بـــين ألمانيـــا وإيطاليـــا عام"٣٩" ثم محور ألمانيا ـ إيطاليا ـ اليابان ...

وسمعنا عن ـ الحلف البريطانى ـ التركى .

والحلف البريطانى الفرنسى ـ التركى ..

ثم حلف ألمانيا والاتحاد السوفيتى .

وكانت هذه الأحلاف جميعا تنطوى على ظـــاهرة محتومة هى ـ الإعداد للحرب ..

وبسبب هذه الأحلاف تمت جميع الحروب وغزوات الخطف التى سبقت الحرب العالمية الثانية، وكانت سـببها الأول.

فخطف إيطاليا للحبشة، وغزو اليابـــان للصـين، وخطف هتلر للنمسا، وتشكوسلوفاكيا، وبولندا،كل هذا تم فى ظل هذه الأحلاف .

وكما حدث قبيل الحرب الأولى من تركز الأحلاف فى معسكرين متقابلين. فى كل معسكر تقف دول كبرى تجاه دول كبرى نظيرها.. حدث نفس الشـــىء قبيـــل

الحرب العالمية الثانية.

فرأينا ألمانيا، وإيطاليا، واليابان ـ فى جانب وبريطانيا، وفرنسا، ثم أمريكا فيما بعد ـ فى جانب آخر..

وكان لابد من حرب عالمية ثانية ..

وفعلا ـ قامت الحرب ...!!

وكان حصادها فادحا..

وعلى جبل عال من : ـ

اثنين وثلاثين مليونا ـ قتلوا فى معارك الحرب .

وعشرين مليونا ـ قتلوا فى الغارات .

وست وعشرون مليونا ـ قتلوا فى معسكرات الإبادة.

وثلاثين مليونا ـ من المشوهين .

فوق جبل عال من جثث هؤلاء الضحايا.. التقى زعماء العالم، وتناقشوا، واجتمعوا..

فهل كانوا أكثر توفيقا وسدادا من الذين سبقوهم

فى مؤتمر "فيينا" ثم فى "مؤتمر الصلح"..؟؟

إذا كان التسابق على الأحلاف، هو المعيار الـــذى نقيس عليه سفه السياسة وطيشها. فكم نحن مضطـــرون إلى الاعتراف بأن رصيد السياسة من السفه ومن الحمـــق لم تمسسه فواجع الحـــرب العالميـــة الثانيـــة بســـوء ولا نقصان..."!!!

أجل.. لقد بدأت جولة أخرى لسياسة الأحـــلاف وكأن عشرات الحروب الصغيرة، والحربـــين العـــالميتين الكبيرتين.. لم تكن كافية، ولا تزال غير كافية لنشـــدان حياة بلا حروب،وبلا أحلاف.؟!

• فى ١٢مارس عام ١٩٤٨. ألقى "ترومان"رئيـــس الولايات المتحدة يومئذ خطابا أعلن فيـــه أن السياســـة الخارجية للولايات المتحدة، تتوخى مساعدة كل أمـــة تدافع عن نفسها ضد أى تدخل ..

• وبعد هذا الخطاب بخمسة أيام لا غير(!) وقـــع فى بروكسل.. حلف دفاعى بين فرنسا، وانجلترا، وهولاندا،

وبلجيكا، ولكسمبورج..

• وبعد توقيع الحلف بساعات (!) وقف "ترومان" يخطب أمام الكونجرس مباركا الحلف وأهله ومعلنا أن "هذا التطور يستحق من الولايات المتحدة المساعدة الكاملة"..

• وبعد هذا الخطاب بأيام اقترحت لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكى اشتراك أمريكا فى مواثيق الضمان الجماعى لحماية السلام العالمى (!)...

• وبعد ذلك بأيام، صار الاقتراح قرارا من قرارات الكونجرس وأعطى هذا القرار حكومة الولايات المتحدة حق"التوسع فى إنشاء التنظيمات الإقليمية"..؟

• وأخيرا... وفى ٤ إبريل ١٩٤٩ ولد الحلف الكبير"حلف الأطلسى"..ووقعته أمريكا وكندا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وبلجيكا، وهولاندا، والدانمارك، ولكسمبرج، والبرتغال، والنرويج، وإيسلندا..

وكما أن معظم الأحلاف التى قامت فى ظل"عصبة

الأمم المتحدة" كانت تنص على أنها تعمل داخل مبادئ العصبة وميثاقها.. فإن"حلف الأطلسى" والأحلاف التى ستقفو أثره.. لن تنسى أن تجامل"هيئة الأمم المتحدة" بتلك العبارة المهذبة .

"يؤكد أعضاء هذه المعاهدة إيمانهم بأغراض ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه (!) "

وكما أن معظم الأحلاف التى أشعلت الحروب السابقة، كانت تنص على أنها دفاعية..كذلك أحلاف ما بعد الحرب العالمية الثانية، تقسم بأغلظ الأيمان أنها دفاعية"..!

إن حلف الأطلسى. جاء امتدادا لسياسة الأحلاف السالفة.. امتدادا لمعاهدة "شومون"، و"الحلف المقدس"،و"الحلف الرباعى" وما جاء بعدها من أحلاف .

ولقد فتح الباب لأحلاف أخرى قام بعضها مقاومة له.. وقام بعضها الآخر تعضيدا له ..

فالاتحاد السوفيتى، ودول الكتلة الشرقية، رأت فى

هذا الحلف تحديا لها.

وفى ٣١مارس عام ١٩٥٤، تلقت حكومات أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا مذكرة من الاتحاد السوفيتى يطلب فيها الموافقة على انضمامه إلى حلف الأطلسى..

والاتحاد السوفيتى يعلم سلفا، أن نصوص هذا الحلف، لاتعطيه الفرصة التى طلبها.. ومع هذا تقدم بطلب الانضمام الذى كان نصيبه الرفض طبعا.. ولقد أحرج هذا الرفض حلف الأطلسى وأعضاءه أيما إحراج..

وفى ٢٣أكتوبر عام ١٩٥٤، وافق أعضاء الحلف على ضم ألمانيا الغربية إليه ..

وألمانيا. عدو لدود للاتحاد السوفيتى ولأوربا كلها ـ وهى دائما مصدر الخطر الأول لروسيا ولأوربا..

هنا لك دعت روسيا لمؤتمر "الأمن الأوربى"..ولكنه أخفق بسبب إعراض معظم الدول المدعوة إليه، ورفضها المشاركة..

وهنا.. وفى ١٤ مايو عام ١٩٥٥، ولد حلف كبير

آخر على غرار حلف الأطلسي.. هو "حلف وارسو"_! بين الاتحاد السوفيتي، وجميع دول أوربا الشرقية والديمقراطيات الشعبية.

وفيما بعد، يقوم حلف البلقان.، والحلف التركى الباكستانى، والحلف العراقى التركى، وحلف بغداد.. الذى أسموه أخيرا "الحلف المركزى".. وحلف جنوبى شرقى آسيا.. وتهيأ الأمور اليوم لحلف البحر الأبيض المتوسط.. هذا عدا المحالفات الكثيرة التى تقوم بين الدول بصورة ثنائية .

ما معنى هذا ..؟

معناه أن سياسة الأحلاف والتكتلات، لاتزال تحتل بؤرة التفكير ..

ومعناه أيضا أن خطر الحرب والانقسام والدمار، يعود فى صحبة هذه الأحلاف ليسلب العالم سكينته وطمأنينته .



أَرْبـــــــابُ الأَرض ..!









على صعيد السياسة العالمية، لم يكـــن رأس المـــال، والأحلاف يعملان وحدهما لإفساد العلاقات الإنســـانية، وتدميرها.. بل كان هناك معهما، التراع على السيادة ..

وفى عصور خلت، كان التراع على السيادة محليـــا، ومحدوداً بعض الشيء.. يوم كان العـــالم عـــوالم شـــتى متباعدة .

أما اليوم، وقد امتزج عالمنا، واقـــتربت مســـافاته، فالسيادة الآن تريد أن تشمله جميعا.. ومن ثَمَّ فالتنـــازع على السيادة اليوم خطر وعنيد.

مَن الدولة التى تسود..؟ من الدولة التى تكون لهـــا

الكبرياء فى الأرض..؟

هذان السؤلان مهَّدا دوما، وفى كل العصور لقيام ما نسميه بالدول الكبرى.

والحرص على بلوغ هذا الوصف. سبب كثيرا من الشقاء لعالمنا ..

من أجل هذا تتحتم على البشرية الحديثة التى تنهض اليوم لبناء نفسها، أن تشيِّع خرافة"الدول الكبرى" إلى القبر وتزف أرباب الأرض إلى مصيرهم المحتوم، وأن يعلن العالم نفسه، عالماً بلا أرباب.

ويبدأ هذا بأن نعرف الفلسفة التى تقوم عليها نظرية "الدول الكبرى"..

هناك فى تاريخنا البعيد، والقريب، والمعاصر، تعبير سياسى مهذب اسمه"حفظ التوازن" ..

ولحفظ التوازن هذا، فى التاريخ السياسى لعالمنا طرائف وذكريات .!

"فبسمارك" برر كل حروبه، وغزواته بحفظ

التوازن..!

ومترنيخ ساد أوربا بطغيانه أكثر من ربـــع قـــرن، وفرض عليها سيادة النمسا وربوبيتها باســـم "حفـــظ التوازن"..!

وبريطانيا انتهبت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس باسم "حفظ التوازن" ..!

وفرنسا ملأت الأرض دمًا باسم"حفظ التوازن"..!

وكانت كل دولة كبرى تتنقل من حلف إلى حلف، وتعادى اليوم صديقها بالأمس، وتصادق غدًا عدوهـــا اليوم ـ لا باسم النفاق والوصوليـــة، والمنفعـــة.. بـــل باسم"حفظ التوازن"..!

وحين طرد العرب من بلادهم وديارهم، وأخرجـــوا من أرزاقهم وأقوات عيالهم فى فلسطين.. تقدمـــت دول كبرى وتعهدت باحترام هذا الوضع"!" باســـم "حفـــظ التوازن"..!

وحين منع الغرب عنا أسلحة دفعنا ثمنها. برر هـــذا

المنع بـــ"حفظ التوازن" ..!

ماذا يعنى "حفظ التوازن" هذا ..؟

إنه يعنى الاحتفاظ بحقوق الزعامة، وحقوق السيادة، وحقوق التفوق والتأله، لدول تريد أن تعيش دائماً فــوق الدول، وفوق الجميع ..

وكل دولة كبرى تجعل شعارها "لا مكان لاثنــــين هنا".. وهنا فى رأيها تعـــنى العــالم.. تعــنى أرض الله الواسعة.

ولهذا نجد الاتفاق بين دولة كبرى، وأخرى مثيلــها، كان يقوم فى التاريخ كله على أسس تبعد تمام البعد عــن المبدأ.. وعن العدل..

ونجد أيضًا أن معظم ما حاق بالعالم عــبر التــاريخ كله، من مصائب وكوارث، تم على أيدى دول أسكرها وأعماها الشعور المتفاقم بالسيادة والاستعلاء .

والدول الكبرى، هى التى أرهقت بسياسة الأنانيـــة والكذب عالمـــًا مسكينًا.

لقد اجتمع فى مؤتمر "فيينا" الذى أعقب الحــــروب البونابارتية ـ أربعة كبار ـ .

هم: روسيا، بروسيا، النمسا، بريطانيا ..!

واجتمع فى مؤتمر الصلح الذى أعقب الحرب العالميـة الأولى ـ ثلاثة كبار ـ ..

هم: الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا ..!

واجتمع غداة الحرب العالمية الثانية ـ أربعة كبار ..

أمريكا ـ روسيا ـ بريطانيا ـ الصين ـ..!

* * *

أما الأربعة الكبار الذين اجتمعوا فى مؤتمر فيينا، فقد اقتسموا العالم قسمة، أشعلت الثورات والحروب فى كـل مكان.. بسبب إصرارهم على امتيازاتـــــهم الظالمــة، وبسبب ضربــهم بحقوق الـــدول الصغــرى عــرض الحائط.. ومن الطريف أنـــهم قالوا فى ديباجة اتفاقـــهم المكتوب يومئذ، إنــهم يفعلون هذا "حفظًـــا للتـــوازن الدولى"...!

وأما الثلاثة الكبار الذين اجتمعوا غداة الحرب العالمية الأولى فقد تنكروا لكل حقوق الإنسان.. أو بتعبير أكثر أمانة وصدقا ـ نقول "إن اثنين منهم هما بريطانيا وفرنسا، تنكرتا لكل ما هو حق، وسار سلوكهما. وكأنهما فى مؤتمر حرب ـ لا مؤتمر صلح .

والحرب التى كانتا تجلسان فوق كومة عالية من أنقاضها. وضحاياها، لم تلهمهما حكمة وعدلا، فوقفتا توزعان العالم من جديد، وضاع فى ضجة أطماعهما صوت حليفهما"ولسن" الذى حاول عبثاً أن يحمى حقوق "الإنسان" وينقذها من أنياب حليفيه الكبيرين.. وكان عاقبة مسعاه، وجهود بلاده فى الحرب، أن تحداه"كليمنصو" وقال له، وهو ضيف عليه فى بلاده فرنسا..

"إذا لم توافق ياسيدى على ما نريده، فإنك تستطيع"
"أن تعود إلى بلادك.. !!! . . . . . . "

وانتهى مؤتمر الكبار الثلاثة نهاية مشابهة لمؤتمر الكبار

فى فيينا..

وأما الكبار الذين اجتمعوا غداة الحـــرب العالميـــة الثانية؛ فقد بدا بأسهم بينهم شديدًا.. ولم يستطيعوا وهم يخططون عالم ما بعد الحرب،وينشئون "مجلســًا للأمــن" يحمى مصير العـــالم.. لم يســتطيعوا أن يتخلــوا عــن كبريائهم، فابتدعوا ما أسموه "حق الفيتو"..

ولمن حق الفيتو هذا ..؟؟

إنه للكبار وحدهم ..

ولقد حدث أن استعمل "الفيتو" لنقـــض قـــرارات ظالمة، وأنقذ استعماله بعض الأمم الصغرى من مؤامـرات كانت تحاك لها ..

ولكن حدث أنه كذلــك اســتعمل، ويمكـــن أن يستعمل لدعم مراكز الوثوب والعدوان التى تخص بعــض الدول الكبرى.

ومهما يكن من شيء، فإن عجز الدول الكبرى على أن تلتقى فى غير ريبة ودخَل، هو الذى حرم العالم من أن

تخلُص له إحدى مؤسساته الكبرى من مثل هذه القيــــود المعوقة العجيبة.

إن إحساس دولة ما بأنــــها كبرى.. وحرصها على أن تظل كذلك يحضها دوما على الاحتفاظ بمزايا هــــذا اللقب وهذا الوضع.

ولما كان وجود دول كبرى، لا يتأتى إلا إذا كــــان هناك دول صغرى"!" فإن ذلك يعنى لا محالة قيام تمـــــايز مستمر وتفاوت دائم بين الكبرى والصغرى ..

ويعنى كذلك دعم الشروط التاريخية التى تســــتبقى الدول الصغيرة صغيرة.. لتظل معالم الامتياز والتفوق مــن نصيب الدول الأخرى الكبرى ..!

ولنسأل الآن سؤالا :

ما هى الاعتبارات التى تجعل الدول الكبيرة كبيرة..؟

إن الإجابة عن هذا السؤال، توضح لنا المضمـــــون السياسى لاصطلاح "الدول الكبرى".

وأمامنا مثال كبير الدلالة يصلح أن نبدأ به الإجابــة،

بل يصلح أن يكون هو الجواب .

فالصين الوطنية، الــتى كـان يرأسـها "شـيانج كاى‌شيك" كانت إحدى الدول الكبرى غداة الحــرب العالمية الثانية فهل كان لها من خصائص الدولة الكـبرى شيء، حتى استحقت هذا الوضع..؟

كلا ..

لم يكن لها جيش قوى، ولا أساطيل ..

لم يكن لها صناعات، لا خفيفة ولا ثقيلة ،..

لم يكن لها موارد الدولة الكبرى ..

وشعبها، كان متخلفا، وأميا.. عشرة فى المائة منـه هم الذين يقرءون ويكتبون ..

وأما الحكومة، فقد شاع فيها من الفساد، والانحلال ما جعـل كبار القـواد الأمريكان أنفسهم يصفونـها بأقذع الأوصاف.

فكيف إذن كانت إحدى الدول الكبرى..؟

ألأنـها خاضت الحرب فى صف الديمقراطية..؟

هناك دول كثيرة خاضت الحرب مع الديمقراطيـــــة، وكانت حكوماتها أكثر ولاء للديمقراطية وللحكم الصالح من حكومة السيد.."كاى شـــيك".. ثم لم تصـــر دولا كبرى.. بل لم تســـتطع أن تحتفـــظ بحقـــوق الـــدول الصغرى..!!

على أن للمسألة بقية جديرة بإعمال الفكر .

فالصين الوطنية هذه اختفت ذات يوم، وانكمشـــت فى جزيرة "فرموزا" ..

ونـــهضت"صين" أخرى تنتظم ســـتمائة مليـــون إنسان لها جيش قوى.. لها صناعات كـــبرى، خفيفـــة، وثقيلة.. لها زراعة حديثة، وإنتاج هائل ..

ومع هذا، فهى لم تأخذ مكانـــها بين الأربعة الكبار فحسب، بل وحرمت من الحق الذى تتمتع به دويـــلات لا يزيد تعداد أهلها عن ربع مليون نفس ..!

أجل حرمت الصين من أن تكون عضواً فى هيئـــة الأمم المتحدة ..!!!

فلماذا ..؟؟

ألأنـــها شيوعية ..؟؟

فى هيئة الأمم المتحدة دول شيوعية..بل فيها جميـــع الدول الشيوعية ..

لماذا إذن ..؟؟

هنا يبرز"حفظ التوازن" بمضمونه الخبيث..

وهنا يتجلى المفهوم الصحيح لاصطـــلاح"الـــدول الكبرى" كما تفهمه وكما تريده بعض الدول الكبرى .

فالصين الشعبية، أخلت بحفظ التوازن الاقتصـــادى للولايات المتحدة ..

والصين القوية، أخلت حفظ التوازن السياســـي فى آسيا بالنسبة للولايات المتحدة أيضاً..

وإذن، فليس جزاؤها أن تحرم صفة الدولة الكبـــيرة فحسب..بل أن تحرم أدنى حقوق وجودها السياسى فـــلا تكون عضواً فى هيئة الأمم التى تضم جميع الأمم ..!

* * *

منذ القرن التاسع عشر، وأمريكا تحافظ على الصين، وتدفع عنها كل غزو.

وحين نطالع تاريخ السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى ذلك القرن وما بعده، تستوقفنا ظاهرة هامة هى إصرار الولايات المتحدة على مقاومة كل محاولة للسيطرة على دول أمريكا الجنوبية.. وعلى الصين ..

وهذا الموقف واضح بالنسبة لأمريكا اللاتينية، باعتبارها امتدادا طبيعيا للوحدة الأمريكية الشاملة ..

لكن ما سر هذا الاهتمام العظيم بالصين ..؟

أجل.. لقد رُسمت السياسة الأمريكية فى آسيا على أساس حفظ الصين من كل تدخل.. وعلى أساس الإجهاز على اليابان كدولة متفوقة صناعياً وعسكريا..!!

فلنحاول أن نفهم هذا اللغز العجيب ..

إن الصين سوق هائلة إذا أُحسن إنعاشها وإذا ظلت بعيدة عن الارتباط بمُصَدِّرين آخرين مثل بريطانيا وفرنسا مثلا حتى يأتى دور أمريكا.. فان ذلك يكون خيراً

عظيما للاقتصاد الأمريكى ..

واليابان دولة أسيوية، ومتاخمة للصين فإذا نهضت عسكريا وصناعيا..سبقت أمريكا إلى هذه السوق وحرمتها منها..

هذا من جانب ..

ومن جانب آخر.. فأمريكا لا تقبل أن تقوم فى المحيط الهادى فى الشرق الأقصى ـ أمريكا أخرى ـ أسيوية.. تضارعها أو تكون يوماً ما مصدر خطر عليها سواء كان هذا الخطر عسكرياً أم اقتصادياً .

ومن هنا، قبلت، بل عملت على أن تكون صين "كاى شيك" دولة كبرى.. مع فقدانها لكل خصائص الدولة الكبرى.. ورفضت أن تكون الصين الشعبية مجرد عضو فى هيئة الأمم، مع تمتعها بمعظم، بل بكل خصائص الدول الكبرى ..!

وبقيام نظام اشتراكى فى الصين، أفلت من التجارة الأمريكية ستمائة مليون زبون .

أليس هذا كافيًا لفقدان التوازن.. وكافيا بالتالى لاضطهاد الصين إنقاذاً لما يمكن إنقاذه من "حفظ التوازن"...؟؟!!!

هناك صحفى أمريكى شهير اسمه "ارنست لندلى" كان وثيق الصلة بالبيت الأبيض أيام "روزفلت" .

ولقد كتب يقول :

"لقد كان المستر روزفلت يذهب دائماً إلى أن الصين "

"ـ يقصد الصين القديمة ـ يجب أن تعامل كدولة . . . "

" من الطبقة الأولى وأنها ستكون فى مدى جيل . . "

"أو جيلين من دول الطبقة الأولى بالفعل . . . ."

ومعنى هذا الكلام من روزفلت، أن الولايات المتحدة كانت تبنى تقديرها على أن الصين ستظل بحاجة إليها وإلى صناعاتها وإنتاجها مدى جيل أو جيلين .

ولكن ما حدث عام ١٩٤٩، من اختفاء آخر ظلال الصين القديمة، وقيام حكومة اشتراكية فى الصين كلها خيب الآمال.. ودعا أمريكا إلى شد زناد حفظ التوازن

شدا غير مأمون العاقبة.

ويمكن أن نلتمس تفسيرا آخر لموقف أمريكا من الصين واليابان.. فنقول: إنها ناهضت اليابان لعدوانها ونزعاتها الاستعمارية.. وإنها عاشت تدفع عن الصين كل غزو خارجى تمشيا مع مبادئها الإنسانية التى خلفا لها واشنطن، ولنكولن، ومونرو ، وولسن ..

أقول: يمكن أن نلتمس مثل هذا التفسير، بل بودنا أن نلتمسه، لو تستطيع الولايات المتحدة أن تقدم تفسيرا معقولا لموقفها من الصين الشعبية اليوم.. وإبطالها كل محاولة لضمها إلى هيئة الأمم المتحدة .

* * *

نحن لا نكتب هذا للتجريح.. ولا يخطر ببالنا ونحن نسطر كتابا يهتف بالإخاء الإنسانى أن نخط كلمات تحمل الضغن أو تريد الإساءة ..

ولكن مواجهة الوقائع التاريخية أمر ضرورى لكل محاولة صادقة تريد إخراج عالمنا من أحقاده وخلافاته .

لقد كان ينبغى بعد قيام"هيئة الأمم المتحدة" ألا يبقى فى العالم سوى دولة كبرى واحدة، هى "الأمم المتحدة" نفسها.

لست أعنى أنها ستتحول إلى دولة، بكل مقومات الدولة.. بل أعنى أنها كمنظمة، يجب أن تأخذ وحدها المكان الأول والأعلى ويجب أن تنتقل إليها كافة حقوق السيادة العالمية، لتقترب بنا من أيام الخلاص .

أما أن تقوم "أمم متحدة".. ثم تنهض إلى جوارها، بل ومن فوقها "دول كبرى" فإن مصالح هذه الدول الكبرى ستفرض نفسها على هيئة الأمم، ولقد حدث هذا عشرات المرات.

فالأمم المتحدة ـ عجزت عن وقف اغتصاب فلسطين وتشريد أهلها؛ لأن"دولاً كبرى" أرادت هذا..!

والأمم المتحدة ـ عجزت عن إفساح مكان لستمائة مليون صينى؛ لأن"دولا كبرى" أرادت هذا ..!

والأمم المتحدة ـ لم تمنع ضرب كوريا.. بل ساهمت

فيها لأن"دولا كبرى" أرادت هذا ..!

والأمم المتحدة ـ لم تستطع حتى اليوم أن تمنع سباق التسلح؟ لأن "دولاً كبرى" تريد هذا ..!

ليس يخطر ببالنا أن نُضَائِل من قيمة الأمم المتحدة بسبب هذا العجز.. ولسنا ننسى المواقف الجليلة الباهرة التى أملت فيها مشيئتها..

ولكننا ندرك أن خضوعها ـ أحيانا ـ لتأثير بعض الدول الكبرى، يعتاق الكثير من جهدها البار، ويعطل الكثير من رسالتها الجليلة.

وهذا ما نعنيه وما نحاول دحضه عنها.

* * *

وثمة خطر آخر يفضى إليه قيام دول كبرى.. ذلك هو: التسابق فى التسلح..

يجب أن ندرك جيدًا ـ أن المؤتمرات غير كافية فى وقف التسلح.. فللتسلح مقدماته التى تجعل منه نتيجتها المحتومة.. ومن هذه المقدمات وجود نظام عالمى يسمح

بقيام "دول كبرى"..

فعل رأس خصائص الدول الكبرى ـ يقف التفـــوق العسكرى.

وكل دولة تريد أن تكون كبرى، تعلم علم اليقـــين أن ذلك رهن بتفوقها فى أسلحة الفتك، وبناء الأساطيل، وإعداد الجيوش.

هذه بديهة لا تحتاج إلى بيان .

ولقد عبر عنها أصدق تعبير"ونسن تشرشل"فى كتابه "الأزمة العالمية" حيث يصف زيارته لبورتلاند، وانبـــهاره بسفن الأسطول البريطانى هناك :

يقول "تشرشل":

"على هذه السفن العظيمة، رأيت شوكة الامبراطوريـــة" "البريطانية وجلالها، وسيادتـــها، وقوتــــها. . . . . . "

ثم يقول :

"افتحوا صمامات البحر.. ودعوا هذه السفن تغرق . . "

"تحت الماء .. وفى بضع دقائق .. فى نصف ساعة . . "

"على الأكثر ، يتغير وجه العالم ، وتتلاشى . . . . . . "
"الامبراطورية البريطانية كحلم .. ، وتتحطم قوة . . . "
"سيدة البحار . . . . "

وعبر عنها :هتلر" حين قال :

"يجب أن نسبق العالم كله فى التسلح إذا أردنا أن . . . "
"نحقق عظمة الأمة الألمانية . . . . "

وعبر عنها "موسولينى" بكلمته المشهورة التى ألقاهـا من فوق "فوهة مدفع" .. وهى :

"الويل للأمم غير المسلحة . . . . "

والتاريخ يمدنا بكل الوقائع والشواهد التى تقنعنا بـأن قيام"دول كبرى" لا يمكن أن ينفصل بحال عن التســـابق الجنونى فى التسلح..

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارهـــا ــ عرض "ولسون" نقاطه الأربع عشرة المشهورة.. وكـانت النقطة الثانية منها ـ حرية البحار ـ ووقفــت بريطانيـا تنافسها طويلا.مما اضطر مستشار ولســن أن يعلــن أن

الولايات المتحدة لن تسلم عن طيب خـــاطر بســـيادة بريطانيا على البحار.. كماأنها لاتسلم بسيادة ألمانيـــا فى البر، وإذا أصرت بريطانيا على سيادة البحار؛ فإن أمريكا ستبنى أسطولا ينتزع السيادة منها ...

أبلغت حكومة لنـــدن هـــذا التوضيـــح؛ فثـــارت ثائرتـــها، ووقف رئيس وزرائها "لويدجورج" يقول :

"إن بريطانيا العظمى ستنفق آخر جنيه لديها للاحتفاظ"
"بأسطول يفوق أسطول الولايات المتحدة . . أو أى "
"دولة أخرى، وليس فى وسع أية وزارة بريطانية . . . "
"أن تبقى فى الحكم يوماً واحداً . إذا هى اتخذت . . ."
" موقفا مغايرا . . . . "

* * *

إن أمريكا ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكـــون لهـــا أسطولها الكبير وعتادها الكبير ..

ومن ثم سارعت فى غير كلل وفى غير بخل ، لبنـــاء الأساطيل وإنتاج العتاد ..

واليابان ، ـ الدولة الكبرى ـ يجب أن يكـــون لهـــا أسطولها، وعتادها ..

وهكذا سارعت هى الأخرى تسابق بريطانيا نفســها حتى صار لها أسطول يماثل أسطولها .

وفى عام ـ ١٩٣٨ـ ألقى رئيس الاتحـــاد الســـوفيتى "كالينين" خطابا فى اجتماع عمـــال الســـفن بمدينـــة "ليننجراد" قال فيه..

"حتى اليوم، لم تتفوق، دولة على بريطانيا ويجب . . "
"علينا أن نتفوق عليها . . . . "
"إن انجلترا ، أقوى بلد رأسمالى ونحن أقوى بلد . . . "
"اشتراكى إننا سندخل فى منافسة مع أقوى الدول "
"الرأسمالية. وكل منها يمتلك أساطيل كبرى . . . . ."
"فعلينا أن ننشئ أسطولا يتفوق على أساطيلها . . . "
" جميعًا . . . . "

وأعلن مولوتوف :

"أن الدولة السوفيتية القوية ، يجب أن تملك . . ."

"أسطولا بحريًا جديرًا بقضيتها الكبرى وبمصالحها"

وقام "الاتحـــاد الســوفيتى" فعـــلا بإنشـــاء وزارة للأسطول.. ولم يطلّ هلال عام ١٩٣٩ حـــتى كـــانت روسيا تملك من الغواصات أكثر مما تملك ألمانيا، واليابـان معًا ..

لقد فرضت تبعات التفوق نفســها علـى الــدول الكبرى جميعاً.. فأمريكا، وبريطانيا،وفرنســا، وألمانيــا، وإيطاليا، واليابان.. تتنازع الصدارة والسيادة، ومقتضــى هذا أن تحرز كل منها أقصى تفوق عسكرى ممكن ..

والاتحاد السوفيتى الذى يقف يومئذ وحده تجاه كـل هذه الترسانات الكبرى، يجب أن يحرز أقصـــى تفـوق عسكرى ممكن..؟؟

وبــهذه الطريقة ذهب، ولا يــزال يذهــب مــن الأموال ما لو أنفق سدسه على تعمير العالم، لجعل مـــن أرضنا هذه فردوسا بــهيجًا..!

إن من المؤسف حقـــًا، أن نتقبــل نظــام"الــدول

الكبرى" كما لو كان ضرورة تاريخيـــة.. وأن نســكت عنه، كما ما لو كان خيرًا وبركة.

ونحن لا نسكت عنه فحسب؛ بل نحــاول تنميتــه وتضخيمه ببناء كتل تسيطر على كل منها دولة كبرى.

لقد أراد كاتب أمريكى كبير هو"والترليمــــان" أن يعالج السلام العالمى، فدعا إلى تقسيم العالم إلى جماعــات ومدارات ..

ففى كتابه "الولايات المتحـــدة وغاياتـــها مــن الحرب"، وقد نشر له ملخص كامل باللغـــة العربيــة، يدعو"ليمان"إلى إنشاء"جماعة المدار الأطلسى"، و"جماعــة المدار الروسى"، و"جماعة المدار الصينى"..

ولقد اقتنعت حكومة الولايات المتحـــدة بدعوتــه، وأنشأت "حلف الأطلسى" .

وهو يرى أن صلات الود والتعاون بين الجماعـــات الثلاث، أو المدارات الثلاث، مدار الأطلســـى، والمـــدار الروسى، والمدار الصينى.. كفيل بتوطيد أركان السلام .

وهو يصرح كذلك بأن مدار الأطلسى ستنتزعمه دولة كبرى هى أمريكا ..

وتتزعم المدار الروسى دولة كبرى هى: روسيا .

وتتزعم المدار الصينى دولة كبرى هى: الصين .

ولا ندرى: هل لايزال عند رأيه بشأن "المدار الصينى" بعد قيام الصين الشعبية، أم لا..؟ "!" .

مثل هذا التفكير الذى أعلنه أكبر كتّاب أمريكا السياسيين. والذى يؤثر تفكيره فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة تأثيراً ملحوظًا... مثل هذا التفكير لايزال يسيطر على الإدراك السياسى لكثرة كاثرة من سكان الأرض. وليست خطورته فيما ينطوى عليه من خطأ فحسب، بل وفى إضعاف الثقة بالمنظمات العالمية التى تحاول البشرية عن طريقها أن تضع حداً لمآسيها ومصائبها .

ففى ١٥ يونيه عام ١٩٤٤، صرح الرئيس "روزفلت" أنه يعتمد فى صيانة السلام على:

"قوة مادية منظمة لهيئة عالمية تسيطر عليها الـــدول الكبرى..!! "

وكانت الدول الكبرى يومئذ هى:الولايات المتحـــدة ـ والاتحاد السوفيتى ـ وبريطانيا ـ والصين الوطنية ..

وصرح "روزفلت" يومها بأن الدول الكـــبرى الـــتى ستسيطر على الهيئة العالميـــة، تكـــون بمثابـــة "بوليـــس السلام".. وأما بقية أمم العالم، فهى الشعب، أو الجمهور الذى ينظمه هذا البوليس ..!

وقبل هذا بعام واحد ـ أعنى عـــام ١٩٤٣ـ اقـــترح وزير بحرية أمريكا لصيانة سلام العالم، أن تقتسم أمريكـــا وبريطانيا بحار الدنيا .."!"

يتولى الأسطول الأمريكى حراســـة غـــربى المحيـــط الأطلسى، والمحيط الهادى بأسره ..

ويتولى الأسطول البريطانى حراسة المحيط الهنـــدى، والبحر الأبيض المتوسط، وشرقى المحيط الأطلسى ..

هكذا تقود نظرية "الدول الكـــبرى" إلى التخبـــط

الشديد والأكيد.. وفى الوقت الذى يحسب معتنقوهـــــا أنـــهم يصونون السلام، يكونون موغلين فى الأســـباب التى تقوض السلام .

ولو أن الحرص على زعامة الدول الكبرى يـــأتى فى المرتبة الثانية من محاولاتنا لصون السلام، لهان الأمر بعض الشىء ..

أما أن يضعه أصحابه فى المرتبة الأولى، فهذا ما يجعل تفنيده ودحضه واجبا محتوما.

لقد اعتمدت السياسة الدولية على نظـــام"الـــدول الكبرى" من مؤتمر فيينا عام ١٨١٤، حتى الحرب العالميـة الثانية.. فماذا كانت العاقبة..؟

كانت حروبا موصولة.. وظلما، وبغيا، واستعمارًا..

وكانت الدول الكبرى.. بمناطقها وتكتلاتـــــها، عصابات خطيرة ملأت الأرض، خرابا وبغيا.. أفنعـــاود الكرَّة بعد كل تلك المثلات..؟؟

أفنترك الأوضاع هكذا.. دول كبرى تقـــود، ودول

صغرى تُقاد ..؟

لا.. وإن من أهم واجبات عالمنا الحديث أن يصفـى هذا النظام تصفية كاملة، وأن يستقبل عصوراً جديـــدة لا تكون السيادة فيها للدول الكبرى.. بل للدول جميعا.. للبشرية جميعا.

* * *

ترى، هل يعنى حديثنا هـــذا، تجـاهل الظـــروف الحضارية التى تجعل من بعض الـــدول..دولا كبـــيرة أى متفوقة تفوقا حضاريا.. وأخرى صغيرة.. أى بادئـــة فى الأخذ بأسباب الحضارة ..؟

كلا . بيقين ..

ولسنا ننكر أبدًا فضل بعض الأمم علـــى بعـــض.. وسبق بعضها لبعض ..

وإنما ننكر"المفهوم السياسى" لوضع الدول الكبرى..

هذا المفهوم الذى يعنى أوضاعا خاصة، وامتيـــازات خاصة، وحقوقا خاصة، لهذه الدول المنعوته بالكـــبرى ..

والذى يعنى بالتالى تقسيم العالم إلى سادة، وتـــابعين. إلى أوصياء، وقاصرين ..

مِحْنَةَ الضَمِيرِ السِّياسِي









خلال الظروف التاريخية التى أسلفناها، تشكل ضمير سياسى مراوغ ومريض .

ضمير تغذى بجميع الإفرازات الضارة التى أفرزهـــا تكالب المال وسياسة الأحلاف، ونشدان المآرب الخاصة.

لم يتح للضمير السياسى أن يؤدى واجبه تجاه المبادئ الإنسانية الرشيدة التى اكتشف الإنسان قيمتها، وأهميتها. وانحرفت به ظروفُ تكونه شطر الكـــذب، والغـــدر، والوصولية. تلك العناصر الأساسية للسياسة العالمية مـــن عهد بعيد.

نحن نؤمن بتقدم الإنسانية، ونؤمن بأن البشرية تسـير

إلى الأمام، وإلى الأفضل دوما .

لكن ذلك لا يعنى أنـــــها مـــبرأة مـــن الآفـــات والنقائص، كما لا يعنى أن ندفن رءوسنا فى الرمال حـــتى لا نرى تلك الآفات .

إن مواجهة الخطأ جزء من الصواب. وإدراك ما هــو سئ يمثل الخطوة الأولى للظفر بما هو حسن .

وإذا كانت البشرية تتقدم دوما على الرغم مما تمتلـــئ به حياتـــها من مثبطات ومساوئ.. فكـــــم ســـيكون تقدمها عظيما وباهرا، إذا نفضت عن نفسها الكثير مـــن تلك المثبطات.

والضمير السياسى العالمى، إحدى القوى العاملـــة فى الحياة الإنسانية وإن له لمواقف طيبة تغرى بالاعتماد عليــه فى تقويم كثير من العوج ..

ولكنه يعمل بمعشار طاقته لا غير.. لأنـــه لا يـــزال مكبلا بكثير من رواسب الأزمان الخالية .

لقد حاق به من مؤامرات التجــــارة، والأحـــلاف

والدول ذات السيادة والعلو. ما أشقاه وجرفه إلى الضلال ولكننا حين نستطيع تنقيته من تلك الرواسب، وحين تطهر السياسة نفسها من أكاذيبها، وضلالها فإن هذا الضمير قادر حينئذ على الإسهام فى بناء رأى عام عالمى، يصون قيم حضارتنا، ويؤمِّن مستقبل نوعنا ..

* * *

وعلى طريقتنا فى الفصول السابقة، سنحاول هنا أن نكشف عن انحرافات الضمير السياسى، لنرى مبلغ ما يحدثه فى تقدمنا من تخريب.

وسنسير أيضًا عبر التاريخ الحديث، لنرى كيف تشابهت ألاعيب السياسة، وبهتانها، وكيف تكرر نفسها فى مجالات السطو، والغرور، وكيف تعاون الضمير السياسى المريض مع رأس المال، ومع الأحلاف على استعمار الشعوب، وتشتيت الصف البشرى .

* * *

فى ـ عام ١٨٦٣ـ نشبت ثورة بولندا الكبرى ضد

قيصر روسيا ووقفت أوربا تؤيد الثورة.. لكن"بسـمارك" وقف فى نشوز عجيب يؤيد القيصر ضد شعب بولنـدا، وضد ثورته، وضد حقوق الإنسان كلها. حتى لقد سمح لجيوش القيصر أن تخترق بلاده "بروسيا" متعقبة الثـوار الذين هربوا إليها .

أما لماذا وقف"بسمارك" هذا الموقف، فهنا نلتقـى بمأساة الضمير السياسى لأوربا .

لقد كان "بسمارك" يعد نفسه سراً لغزو النمسـا، ومن بعدها فرنسا وهو يريد أن يأخذ إلى جانبه قيصـر روسيا، لكى يربح هاتين الحربين.

من أجل هذا رأى أن يُسلف للقيصر جميلا كبيرا هو تعضيده فى إطفاء ثورة شعب يطالب بحريته ..

فالحرية، والحق، والعدل، وكل حقوق الإنسـان، مسائل ثانوية بالنسبة لبسـمارك، وبالنسـبة للضمير السياسى المنحرف..

ولقد حدث ما رسم له بسمارك خطتـه.. فحـين

هاجم النمسا وقف القيصر معه.. ووقفت إيطاليا أيضاً معه، بعد أن وعدها بالبندقية.

وفى هذه الحرب كذلك، وقف يبارك احتلال فرنسا لتونس، ويشجعها عليه، لأنه يعلم أن احتلالها لتونس، سيسخط عليها بريطانيا.. وراح يشجع بريطانيا على احتلال مصر، لأنه يعلم أن هذا يسخط عليها فرنسا.. وهو يعلق على خلافهما آمالا كبارا .!

وبعد أن ينتهى من حرب النمسا ويهزمها، يتجه شطر فرنسا،ويهزمها هزيمة ساحقة.. ولكنه قبل أن يبدأ الحرب معها يغرى النمسا بالزحف إلى البلقان، ويعدها بالمساعدة. وذلك كى يتقى احتمال هجومها عليه أثناء حربه مع فرنسا.!!

هذا هو الضمير السياسى الذى قاد قافلة السياسة، حاملا لواء الأنانية المسعورة، والغدر الرخيص.!

* * *

وثمة مثال آخر، كله عبرة وحكمة،هذا المثال

هو"حرب القرم".

ذات يوم، أرادت روسيا القيصرية أن تحقق أطماعها فى تركيا.. وبحثت عن سبب يـــبرر عدوانـــها الـــتى وضعت خطته، فماذا كان السبب.؟

لقد أعلنت أنـــها ذاهبة إلى تركيا، لحماية المذهـــب الأرثوذكى، الذى تدين به جماعات كثـــيرة فى الـــدول العثمانية .!

ورأت"فرنسا" أن تدخل روسيا باسم الدين قد نجح وآتى ثمره، فقررت أن تأخذ نصيبها من الغنيمة .

ولكن بأى حجة كاذبة تتدخل ، وتعتدى ـ ؟؟

المسألة سهلة ..!!

إن روسيا تدخلت لحماية الأرثوذكس.. فلتتدخـــل فرنسا لحماية الكاثوليك ..!!

وهكذا تقدمت إلى تركيا بمذكرة ضافية، ضمنتـــها، أن"هارون الرشيد"كان قد سلم مفاتيح المسجد الأقصـــى إلى "شارلمان" .. كما أن"سليمان القـــانونى" اعـــترف

لحليفه يومئذ "فرنسوا الأول" ملك فرنسا. بحق فرنسا فى حماية كاثوليك الشرق العربى كله ..!!!

بقيت بريطانيا، فماذا هى صانعة ـ ؟

لم تضيع بريطانيا وقتها .."!" وإذا كان هناك أرثوذكس تحميهم روسيا، وكاثوليك تحميهم فرنسا، فهناك بروتستنت، ينتظرون حماية أمهم بريطانيا ..!!

وهكذا تقدمت إلى السلطان عام ـ ١٨٤٠ـ طالبة الإذن ببناء كنيسة بروتستانت فى القدس .

ولننظر كيف سارت المهزلة فيما بعد ...

لقد أوحت كل دولة من الدول الثلاث إلى القساوسة والرهبان التابعين لمذهبها، بأن يشاغبوا قساوسة ورهبان المذهبين الآخرين.

وبدأت الفتن تنشب بين قساوسة المذاهب الثلاثة، بالقدس، الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت..

وجاءت الخطوة التالية ..

فتقدمت روسيا إلى تركيا، متهمة إياها بتحريض

الكاثوليك والبروتستانت على رعاياها الأرثوذكس..
وعليها إذا أرادت أن تثبت حسن نيتها، بأن تسلم فوراً
مفاتيح كنيسة المهد فى بيت لحم إلى الرهبان
الأرثوذكس..!

واقتربت فرنسا، فأرسل نابليونها الثالث،
تهديدًا مباشرًا إلى تركيا ـ إن هى أجابت طلب
روسيا، وإذا هى لم تكف عن اضطهاد رعاياها
الكاثوليك "!"...

وأما بريطانيا، فوقفت تمارس دورها المعروف..
فتحرض سلطان تركيا على روسيا وفرنسا.. وتحرض
روسيا وفرنسا على تركيا ـ حتى نشبت حرب القرم
المعروفة..!

فى هذه الحرب، يتكشف الضمير السياسى، وتبدو
حقيقته الشائهة.. فحتى الدين الواحد يستغل أبشع
استغلال وتُمزق أواصره بين أبنائه على هذا النحو
الردئ، من أجل الحصول على صفقة استعمارية هى

"تركيا"..!!

ولم تستنكف الدول التي كانت تتزعم الديانة المسيحية - وهي روسيا، وبريطانيا، وفرنسا.. لم تتورع هذه الدول عن تدنيس يديها بتمزيق أواصر الشعب المسيحي نفسه، وتحريض كاثوليكه على أرثوذكسه.. ما دام ذلك سبيلا إلى مطمع غير مشروع ..!!! تُرى هل اختلف الضمير السياسي في منتصف القرن العشرين عنه في القرن التاسع عشر، قرن بسمارك، وحرب القرم..؟؟

لكي نعرف، علينا أن نستعير بعض الشواهد من الأمس الرطيب والقريب.. بل من الأيام التي نعيشها ..

في عام ١٩٣٣، تسلم زمام الحكم في ألمانيا دكتاتور عنيد أحمق.. لم يكد ساعده يشتد حتى أخذ يهوى على الدول الصغيرة يستعبدها ويسرقها، وحتى أخذ ينادي ألمانيا فوق الجميع، ويعد لحرب عالمية، تنتهي بسيادة ألمانيا..

كان الموقف السليم للدول التي تزعم أنها ديمقراطية،

وحامية حمى الديمقراطية، أن تَجُبَّهَ هذا الغرور فى بدايته..

ولكن الضمير السياسى المريض تخلى عن المبـــادئ الخَيِّرة، فتخلَّت عنه العافية، وتخلَّى عنه الرشـــد.. هـــذا الضمير دفع الديمقراطيتان الكبيرتان"!" بريطانيا وفرنســا إلى ممالأة هتلر، أولا ـ وموسولينى ثانياً ممالأة حصد العالم كله شوكها فيما بعد .

* * *

لقد اجتاح هتلر"حوض السار"ذات صبـاح، أو ذات مساء.. وفى استخذاء شديد، ذهبت بريطانيا ووقعت معه معاهدة سرية "!" .

وذات صباح، أو ذات مساء آخر ـ ســطا علــى تشكوسلوفاكيا بعد أن ازدرد قبلها النمسا .

أتدرون ماذا حدث ..؟؟

لقد أرسلت الحكومة البريطانية "اللورد نسـمان"إلى الحكومة التشيكية فى مهمة دبلوماسية، وأذيع يومئــذ أن مهمتــه تتمثــل فى تنظيــم مقاومــة هتلــر، مـــع

تشكوسلوفاكيا.. ثم اتضح أخيرًا، وبعد الحرب العالميــة الثانية، أن السيد"نسمان" ذهب باسم الحكومة البريطانيـة لكى ينصح حكومة تشكوسلوفاكيا ـ بالإذعــان لكــل مطالب هتلر .!!

بقى أن نعرف أنه قبل غزو تشكوسلوفاكيا ببضعــة أشهر.. ألقى الهر هتلر خطابًا سياسيًا قال فيه :

"إن من أكبر الكوارث، أن تتخلــى انجلــترا عــن استعمارها للهند !!!"

معتدون يتعامل بعضهم مع بعض، وضمير سياســى فقد كل مقومات الضمير الحر الرشيد ..

وعندما اجتاح "موسولينى" بلاد الحبشة..ماذا كــان دور هذا الضمير ..

اجتمع"صمويل هور" وزيــر خارجيــة بريطانيــا مع"لافال" وزير خارجية فرنســا ـ وأعلنــا اعــتراف دولتيهما بشرعية الاحتلال الإيطالى لجــزء كبـير مــن الحبشة..!!

وفى عام ـ ١٩٣٦ـ اجتمع الشعب الإسبانى فى انتخابات حرة ورفع إلى مقاعد الحكم أعضاء الجبهة الشعبية .

وكان الإقطاع الإسبانى يلتهم مقدرات الشعب فى أمعاء ليس لها قاع، ولاقرار.

وكان هذا الإقطاع فى يد الكنيسة الإسبانية التى كان أكثر رجالها يقفون وراء الرجعية فى بلادهم .

لهذا، كان من الطبيعى لتصفية الإقطاع الذى قررت حكومة الشعب تصفيته ـ أن تواجه الكنيسة رغم جبروتها.

ولقد بدأ هذا فعلا.. وأخذت الإصلاحات الهائلة تتحقق.. وإذ الأرض تنشق فجأة عن"فرانكو".. فيقود حركة بل ثورة ضد حكومة اختارها الشعب، وتقوم بإصلاحات يريدها الشعب"!".. أى أن ثورة "فرانكو" كانت ثورة ضد الديمقراطية، فإذا لم تعاونها دول الديمقراطية، فلا أقل من ألا تحاربها .

ومع هذا فانظروا ماذا حدث .

لقد انهالت المساعدات العسكرية من الفاشية الإيطالية، والنازية الألمانية على حليفهما فرانكو ..

أما بريطانيا وفرنسا الديمقراطيتان، فقد اتخذتا موقفا أسمياه "سياسة عدم التدخل"

وكان هذا موقفًا تنكريًا .. أما فى الحقيقة، فقد تدخلتا لصالح فرانكو .

ذلك أن بعض المعونات أخذت تفد على حكومة الشعب الديمقراطية من الخارج.. فأوعزت بريطانيا لفرنسا كى تغلق حدودها عند جبال البرانس حتى تقطع الطريق على تلك المعونات ..!!

هذا سلوك الضمير السياسى فى عالمنا ..

سلوك، يقدم المنفعة على المبدأ.. والخوف على الواجب.. والباطل على الحق ..

سلوك سببه "تقوقُع" الضمير السياسى داخل دائرة ضيقة من مصالح خاصة،ونزعات عنصرية.. وهكذا

اختفى الضمير الإنسانى رويدا رويدا.. وأخـــذ مكانـــه الضمير السياسى المتعصب الكذوب.

ولو أن الضمير الإنسانى لم يختف ويختنق فى زحمـــة الأطماع، لو أنه بقى مكانه يقودنا، ويمسك بـــمصايرنا لامتنع قيام الحروب ..

أجل.. لو أن اليابان حين استولت على منشـــوريا عام ١٩٣١ـ وجـــدت الضمـــير الإنســانى متمتعـا بسلطاته،متحديا عدوانـــها ـ لما غزا موسولينى الحبشـــة عام ١٩٣٥..

ولو كان الضمير الإنسانى فى مكانه ليزجر موسولينى عن غزو الحبشة ـ لما زحف هتلر على أرض الرين عـــام ١٩٣٦ ولما زحفت اليابان على الصين عام ١٩٣٧، ولمـا زحف النازى على النمسا وتشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ـ ولما قامت بعد هذا، وبسبب هذا، الحرب العالمية الثانيـــة عام ١٩٣٩..

لكن الضمير الإنسانى لم يكن موجوداً.. وكان هناك

الضمير السياسى الموبوء بوباء أوربا، والحـــامل لكـــل ميكروبات الاستعمار .

والدول المعتدية، تعلم أن عَلفَ هذا الضمير ـ هـــى المساومة وهكذا لكى يظفر هتلر ـ مثـــلا ـ بســكوت بريطانيا على سرقاته.. ليس عليه إلا أن يُعلن أن احتلالها للهند بركة، وأن جلاءها عن الهند كارثة .."!"

ولو كانت مسايرة بريطانيا، وفرنسا للفاشية والنازية ضربا من ضروب التعاون الإنسانى، لكان عملا طيبا..

فقد بارك العالم كله هذا النوع من التعاون بين دول مختلفة النظم اختلافا بعيدا .

فى عام ١٩٤٠ خطب "روزفلت" أمام الكونجـــرس الأمريكى فأعلن"أن مسافة الحلف واســعة جــدا بــين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى"..

ثم لم يمض عام واحد، حتى كان الاتحاد الســـوفيتى والولايات المتحدة يعملان معا وفى صف واحـــد ضـــدَّ الغزو النازى.

لكن الذى حدث بين بريطانيا وفرنسا من جـــانب، وألمانيا وإيطاليا من جانب آخر.. لم يكن تعاونـــا علـــى الخير.. بل تبادلاً للمنافع المنهوبة.

ولقد انتقلت العدوى يومئـــذ إلى"عصبـــة الأمـــم" فلاذت بالصمت المريب تجاه كل العدوان الذى كـــانت إيطاليا، وألمانيا، واليابان تقوم به ـ مما جعلـــها تعيـــش عمرها القصير."وكالة حكومـــات"، لا جمعيـــة أمـــم وشعوب..

* * *

ومعنى هذا بداهة، أن أية منظمة عالميـــة، تنـــهض لحماية المصير الإنسانى، ستصير عاجزة حتى عن حمايـــة نفسها، ما دام الضمير السياسى العالمى.. وفى خدمته كل القوى الشريرة التى تسانده، قادراً على التســـلُّل إليـــها، وعلى التحكم فيها .

إننا نعجب كثيرا لموقف"عصبة الأمم" بالأمس مـــن حقوق الإنسان التى كانت تُهدر جهارا عَلَنـــا، وهـــى

ساكتة أحيانا، وشريكة فى الوزر أحيانا أخرى..

وتعجب لموقف"هيئة الأمم" اليوم من الحقوق الكثيرة المهدرة لبعض الأمم والشعوب.. ووراء هذا الموقف للعصبة وللهيئة، تقف أزمة الضمير السياسى على رأس الأسباب التى تثمر هذا الموقف الكئيب.

إن هناك ـ لا ريب ـ سيطرة الدول الكبرى، أو بعضها على المنظمات العالمية.. وهناك نفوذ أصحاب المصالح، وأقطاب الصناعة والمال فى العالم .

ولكن، كل هذه القُوى، كان من المستطاع نَهنهة الكثير من شرها، ولا أقول ـ كل شرها ـ لو أن الضمير الذى تستهديه المنظمات العالمية، كان أكثر نقاء، واستبسالا، وأمانة .

لكنه، ومن واجبنا أن نعترف بهذا فى غير مواربة، ضمير مثقل بالضعف، وبالآفات .

وهو لا يستطيع أن يكون إلا هكذا، ما دام يعيش داخل ظروف منحرفة، وما دام يستمد غذاءه، وهواءه

من تلك الظروف الآسنة العَكِرة الخانقة ..

فما السياسة التى تغذى هـذا الضمـير، وتَصُـبُّ فيه..؟؟

إنـها ـ كما رأينا من الشواهد السالفة ـ كرنفـال هائل مضحك ومزعج معاً من الأكـاذيب، والأحـابيل والمؤامرات .

وهى فى أطهر صورها ـ إن كان فيها طُهر علـى الإطلاق ـ انعكاس الشكوك،والمخاوف، والأطماع الـتى تنتاب الدول، وتتحكم فى تفكيرها السياسى .

ومُنظمة عالمية، تمثل قيام مجتمع إنسانى واحـد، لا يمكن لها أن تحيا، وتعمل، وفى داخلها ضمير يتغذى بتلك السموم .

لقد عاش عالمنا الحديث على آلاف الوُعـود بأنـه لا حرب.. ولا ظلم .. ولا استعمار ..

ومع هذا ـ فلم تكن قاعدة حياتـه إلا الحـرب، والظلم، والاستعمار.. وكانت فترات السلم، والعـدل،

والحرية.. مجرد لحظات عابرة.. كأنها أخطاء تورطـــت السياسة فيها، ثم لم تلبث أن تخلـــت عنـــها وعـــادت لتصحيح موقفها...!!!

ويحدث هذا ـ دوما ـ لأن الضمير السياسى الملتاث هو القائد والرائد .

وليس شر ما فى المسألة أن ضميرًا مريضًـــا شـــريرًا يتحكم فى مقدراتنا ومصايرنا ـ بل أكثر من ذلك شـــرًا، غفلتنا، وضعف إدراكنا للخطر الفادح الذى يمثله هـــذا الضمير .

إننا لا نضع العين عليه، كعامل من أكثر العوامـــل المخربة فى صفوفنا البشرية ـ ومن ثمّ فلا نبـــذل جـــهدًا لِرَدْعه وتقويمه.. ومن ثمّ مرة أخرى ـ فهو يعمل فى حرية كاملة وطُمأنينة أكيدة..!

فى ميثاق الأمم المتحدة نص يلزمها بـــ"اتخاذ تدابـــير مشتركة للقضاء على كل ما يخل بالسلم" ..

ولكن. إلى جوار هذا النص الطيب، تجد مبدأ يُحتِّـــم

"إجماع الدول الخمس الكبرى على كل قـــرار يصـــدر عنها".. !

كيف إذن يمكن اتخاذ تدبير ما لحماية السلام والأمن إذا كان المتهم إحدى هذه الدول الكبرى .

وما سرّ هذا التناقض البين ..؟

إنه الضمير السياسى، الذى يعمل بـــأهواء عـــدة.. ويُناط به التوفيق بين أطماع ومصالح متنافرة ..

والذى يُحاول دوما وفى تخبط مستمر، أن يــــأكل الكعكة، ويحتفظ بـــها فى نفس الوقت ..!

إنه إذا أحسنَّا به الظن.. يريد أن يُوجـــد ظـــروف السلام، بشرط الإبقاء على كل مغانم الحرب ..!

* * *

إن آفة الضمير السياسى لعالمنا، تتمثل فى انفصالـــه عن قاعدته.. وقاعدته هى العالمية القائمة علـــى أســـاس حقوق الإنسان..

فمحلّية الضمير، وإقليميته دفعته إلى إعــــلاء شـــأن

الأنانية والتعصب، وإلى تبرير كل الجرائم التى تثمرها الأنانية والتعصب.

ويوم آمن هتلر بمخلفات أسلافه الألمان، من" فخته" و"شبنجلر".. إلى "بسمارك"و"غليوم" الذين هتفوا بالتفوق العنصرى للألمان ..

ويوم نفخ هو فى هذه المشاعر.وأحالها إلى عقيدة فولاذية..

ويوم ملأ أفئدة الألمان بأنهم"فوق الجميع" ووعدهم بألف عام يسودون فيها الأرض، ويُوجهون الدنيا.

يومئذ ـ كان الضمير الملتاث يُدبر فى قساوة فَاتكة أسوأ مصير للألمان، وللعالم كله ..

وكذلك يوم تركزت مفاخر الإنجليز، ومصالحهم، وأمجادهم فى "امبراطوريتنا".. تَنكّب ضميرهم كل حق.. ومجّد كل باطل..وصارت كلمة دزرائيلى المشهورة.. "أوثر على حقوق الإنسان.. حقوق الإنجليز".. صارت

هذه الكلمة شعارَهم ودستورهم وموضوع حياتهم.

والظلم الكبير. بل الأكبر الذى جُرِّع أهل فلسطين كئوسه المريرة، ما كان إلا ثمرة تمجيد الذات وتمجيد العنصرية، والعمل داخل نطاق الأنانية البغيضة، والقومية المقفلة.

وهكذا تتزاحم الأمثلة والشواهد، متماثلة متشابهة، لتضع أعيننا على أخطر آفاتنا.. تلك هى انفصال الضمير السياسى عن قاعدته ..

لو أن هذا الضمير يحس المشاكل إحساساً شاملا عميما،وينبض بمصالح العالم مجتمعة.لا بمصالح قطاعات خاصة، لجُنِّبَ العالم كثيراً من الحروب، وكثيراً من الفتن والاضطرابات.

ولو أنه كذلك يستهدى المبادئ الإنسانية العامة لبرئت أرضنا من الظلم، ولترعرعت فيها مباهج الحياة ..

* * *

إن انفصال الضمير عن قاعدته التى عرَّفناها فيما

سبق، لم يجعل السياسة العالمية أنانية وحسب..بل جعلها ضرباً من الشعوذة والدجل، يلْبِس الحق بالباطل، ويَرُوض الناس على الشك فى كل القِيَم والوقائع .

والشعار السياسى القائل "اكذب.. واكذب.. ثم اكذب دائما؛ فلابد أن تجد من يصدقك"..هو التعبير اللفظى لأخطر عمليات الشعوذة السياسية التى أشاعت، ولا تزال تشيع فى عالمنا الاضطراب والقلق، وفقدان الثقة.

كثيرًا ما تلبس السياسة مُسوح العدالة والخير، فينخدع الناس لها، حتى إذا حققت أغراضها الخبيثة، أو كادت.. تكشَّف زيْفُها، ولكن بعد فوات الأوان الذى كان مُناسبا لِدَحْض مناوراتها .

ومبادئ الحرية، والحق، والسلام، ليست سوى مطايا ذُلُلا تمتطيها السياسة لتحقيق مآربها .

فى عام"١٨٢٢"تُوِّجت بريطانيا بغار الشرف والمجد، لأنها أبْلَت بلاء عظيما فى سبيل إقرار"مبدأ مونرو"

القائل"أمريكا للأمريكيين"، والـــذى منـــع التدخـــل فى الشئون الأمريكية، فمنع بـــهذا محاولة النمسا حمل الدول على التدخل لقمع حركات التحرر، وثورات الاستقلال.

كانت البلاد الخاضعة للنمسا يومئذ تتفجَّر رغبـــة فى الاستقلال والحرية.. وكانت هى تعقد المؤتمرات لتقـــرر عدم مشروعية هذه الانتفاضات .

ووقفت روسيا، وبروسيا، وفرنسا ـ مؤيدة النمسا.. بل ومرسلة جيوشها إلى كل بلد ينادى بحريته ويـــهتف باستقلاله.

وفجأة وقفت"بريطانيا" ضد حلفائها منادية بعـــدم التدخل فى شئون الدول الداخلية.. وانبهر العالم يومئـــذ بهذا الموقف، وصـــاح مـــن فَـــرْط النشـــوة، وروعـــة المفاجأة:"لقد هُدِيَت بريطانيا".

فهل تعرفون السرَّ الـــذى وراء موقـــف بريطانيـــا هذا..؟؟

لقد كان للنمسا مســـتعمرات كثـــيرة فى أمريكـــا

الجنوبية ..

وكان بعض هذه المستعمرات، قد بدأ الثورة ضد استعمار النمسا.. فمبدأ"التدخل" الذى تنادى به النمسا، سيمكنها من إطفاء هذه الثورات.. ومبدأ "عدم التدخل" الذى تنادى به بريطانيا سيجعل النمسا تقف وحدها أمام الثورات المعادية لها، والتى اندلعت فى كل أنحاء امبراطوريتها..

وبريطانيا حريصة كل الحرص على ضعضعة النمسا وإضعافها، وأيضًا على طردها من أمريكا الجنوبية ..

وهكذا تبنَّت مبدأ "عدم التدخل" باسم حقوق الإنسان طبعاً.."!"ووقف وزير خارجيتها"كاننج" يُعلن فى إنسانية مفيضة أن"بريطانيا الدستورية الحرّة، ليس من صالحها مساندة الرجعية، والملوك المستبدين".."!".، وأوعزت بالفعل إلى"مونرو" رئيس الولايات المتحدة يومئذ، كى يعلن أن "أى تدخل أوربى فى أية بقعة من أمريكا، ستعده أمريكا عملا عدائيًا، وستقاومه ولو

بالحرب"..

وهكذا انتصرت بريطانيا، وساد مبدأ "عدم التدخل" سيادة تامة .

والآن، فلننظر بقية النبأ، فإن فيه من الطرافة. قــدر ما فيه من العظة .

عندما جاءت الحرب العالمية الأولى، كانت أمريكا.. لاتزال سائرة على مبادئ"مونرو".. لا تتدخل فى شـئون أوربا،ولا تتدخل أوربا فى شئونـها..هذا المبدأ الـذى أقنعتها به بريطانيا، وحملتها عليه عام"١٨٢٢"..

أفتظل أمريكا بعيدة عن هذه الحرب العالمية..؟

إنـها إن فعلت،كان ذلك نكبة على بريطانيا الـتى تتوقع هزيمـة كبرى إذا لم تخف أمريكا بإمكانياتـها لنجدتـها ومشاركتها الحرب..

ولكن"مبدأ عدم التدخل" لا يزال قائما.. وبريطانيـا هى صاحبة الفضل فيه، فماذا تصنع ..؟؟

إن السياسة، والسياسة البريطانية بصفـة خاصـة

لا تعرف المبادئ إنما تعرف المصالح .

ولقد كان مبدأ "مونرو" حميدًا، يوم كـان يحمـى مصالح بريطانيا أما اليوم،"فليسقط مبدأ مونرو"،و"لتحيـا مصلحة بريطانيا .."

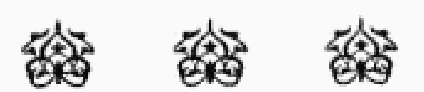
وهكذا أخذت بريطانيا تتوسل بكل دهائها لهـدم ما بنته بالأمس، وتجعل من مبدأ عدم التدخـل خيانـة لحقوق الإنسان، وجريمة فى حق أمريكا نفسها، بعـد أن كان أقدس الواجبات؛ فأوعزت إلى الصحافة الأمريكيـة، وكل أجهزة الدعاية والإثارة لتنادى بأن.. عدم التدخل، هروب وانتحار.. وأن هزيمة بريطانيا فى الحرب، ستكون هزيمة لأمريكا، لأن الديون الهائلة التى تديـن أمريكـا بريطانيا بـها، ستضيع مع هزيمـة بريطانيـا... ولمـا انتصرت فى روسيا ثورتـها الشـيوعية عـام "١٩١٧" وقررت حكومة "لينين" الانسحاب من الحرب وجـدت بريطانيا الفرصة سانحة لإنزال الرعب ـ كل الرعب ـ فى قلب أمريكا، وأقنعتها بضرورة التدخل، فدخلت الحـرب

يوم ٦ أبريل عام"١٩١٧"..

إن هذا المثال يتكرر فى الدنيا كل يوم.. ونُبصر دولاتنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسَة يتخذون مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم هى منطوية على نقيضها تمامًا..

كما نبصر مواقف يَتّسِم ظاهرها بالإخلاص لحقوق الإنسان وهى فى حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمع هذه الحقوق وتضليل مَسْعاها..

إن المبادئ التى يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة، هى الجديرة اليوم بالسيادة، والذيوع، حتى يمكن الظفر بضمير سياسى جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم الحق، لا الباطل.. ويعمل فى خدمة البشرية مجتمعة. لافى خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..



.. والرمـــاح منـــاجل !









تنبأ بسلام الأرض ومَن عليها، كثيرون من أبنائـــــها البررة الذين ساروا فوقها هَونا .

وعمل لهذا السلام كثيرون بعقولهم، وبســـــواعدهم وبمساعيهم الجليلة النبيلة ..

وهناك على ناصية الطريق من بعيد.. ترك إنسان بارٌّ بُشرَى مضيئة .

إنه "أشعياء" أنبأ أن عالما جديداً سَيهلُّ زمانه، وتُطـلُّ أيامه ـــ يقف الناس جميعاً فيه إخوة متحابين .

"يطبعون سيوفهم سككا "

"ورماحهم مَناجلَ . . . "

"لا ترفع أمة على أمة سَيفا "

"ولا يتعلمون الحرب فيما بعد"

كان سلام العالم"رؤيا" الذين استشرفوا المصير الإنسانى ببصائرهم المجلوّة المشرقة المُلهَمه..

وكان "أمل" الذين استقرءوا التاريخ، وتتبعوا حركته؛ فرأوا فيه محاولة صامدة وصاعدة ..

وفى عصورنا هذه قَوِىَ الرجاء، وازدهر الأمل، وأوشكت"الرؤيا"، أن تصير"رؤية".. وأصبحت قضية الإخاء البشرى موضوع اهتمام الناس جميعًا.

وهذه الصفحات على الرغم من الحمية المتبدية فى بعض كلماها.. ليست إلا تغريدة فى مهرجان الأمل العظيم .

ولكنها تكون تغريدة خالية من المعنى، ومن البهجة الصادقة، لو أننا تجاهلنا عوامل الفرقة والتمزق ولم نكشف عنها قناعها وغطاءها، تمهيدًا لمقاومتها وعزلها عن الحياة الإنسانية.

ولقد أتينا على ما نرى أنه أكثر عوامل التفرقة شرا. وقلنا إنـــها: ـ

- رأس المال الهادف إلى الاحتكار والسيطرة.
- الأحلاف التى وقفت وراء معظـــم الحـــروب، والسرقات..
- تقسيم العالَم إلى "دول كبرى"لها كـــل شـــىء، و"دول صغرى" ليس لها من الأمر شىء..
- انحراف الضمير السياسى عن المبادئ الإنســـانية وإيثاره المنفعة على الواجب ..

ولقد كان التاريخ شاهد صدق على الدور الوبيـــل الذى لعبته هذه الآفات الأربع، فى تمزيق وشَائج الإخـــاء الإنســـانى، وفى تضليـــل إرادة التفـــاهم، والتجمـــع، والالتقاء..!

والآن، نود أن نُوفق إلى وضع خطة نتلافى بها زحف هذه العوامل الضارة .. وإلى اختيار نهج يقترب من الغـــد العظيم ولسنا نزعم أننا نملك الخطة الكاملة ، ولا نُقـــدم

النهج الأوفى .

وإنما هى "إيماءة" إلى الطريق.. بيد أنها بما تنطوى عليه من صدق المحاولة، وإيثار الفهم على الظن ـــ يمكن أن تكون ذات نفع عظيم

لقد أبانت الصفحات السالفة من الكتاب، المخاطر المبهظة التى تُعرِّضُنا لها الآفات الأربع .

فكيف السبيل إلى نفيها من حياة البشر ..

وكيف السبيل إلى جمع الشَّتات البشرى، والاقتراب من عصر العالَم الواحد والإنسان المُحبّ الودود ..؟؟

هذا هو ما سنحاوله فى هذا الفصل الأخير من الكتاب .

* * *

موقف نزاع ..

ونبدأ محاولتنا بتصور العالَم على الطبيعة.. لا فوق الخريطة.

وأول شىء ستقع عليه أعيننا، وأكثر مظاهر هذا

العالَم إثارة لانتباهنا، هى مسافة الخُلف الحافلة بأســـبابها بين معسكرين شهيرين.

(ا)معسكر الرأسمالية ، أو الغرب .

(ب)معسكر الاشتراكية، أو الشرق .

وبالتالى ـ بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى..

ونحن نؤثر أن نبدأ محاولتنا من هنـــا.. أعـــنى مـــن مواجهة هذا الموقف الذى اخترنا له كلمـــــتى "موقـــف نزاع"..

وليس سبب هذا الاختيار فى البـــدء، أن روســـيا وأمريكا دولتان كبيرتان.. أو أن الرأسمالية والاشـــتراكية مذهبان أو حدان..

فنحن كما أوضحنا من قبل، وكما ســـنذكر مـــن بعد، لانؤمن بتقسيم العالَم إلى كبير وصغير، ولا بتقســـيم المذاهب والفلسفات أيضًا.

فلجميع الأمم حقوقها المتكافئة.

ولجميع الفلسفات حقوقها المتكافئة.

ولا فضل لأمة على أخرى ولا فلسفة على أخرى إلا بقدر ما تسدى من يد للسلام، وللخير، وللعدل، وللحقيقة، وللإخاء..

ولقد قلنا إننا ننظر إلى عالمنا اليوم على الطبيعة ..

وعلى الطبيعة، وفوق صعيد الواقع، نجد دولتين انتهت إليهما ـ وفَق الأساليب السائدة من زمان ـ زعامة العالَم فى عصرنا هذا..

وسواء تقبلنا هذه الزعامة أو رفضناها، فهى من جهة الواقع ليست خُرافة ولا وهما.

إن ظروفا تاريخية معروفة، دفعت كلتا الدولتين إلى الصَّدارة فى عصرنا هذا.

ونقول "فى عصرنا هذا" لأن أحدًا لا يعلم ماذا تكون الأمور غداً، إذا ظلت المعايير التى تجعل فى العالم صغاراً وكباراً، قائمة وسائدة.

وتصفية الموقف بين روسيا، وأمريكا، وبين الرأسمالية، والشيوعية .

هذه التصفية ـ لو تمت ـ تكون نقطة الانطلاق العظيم نحو عالم لا تأثيم فيه ولا غِلّ .

ولكن يجب أن تتم التصفية وفَق المبادئ التى تخدم المصير الإنسانى المشترك ـ لا وفَق القواعد التى تخدم مصاير خاصة..

ولكى يتم هذا على الوجه الحق، لا ينبغى أن تُترك معالجة ما بين الدولتين، للدولتين وحدهما.. بل ينبغى أن يسهم العالم كله بنية صادقة فى إتمام هذه التصفية .

وتصفية ما بين الدولتين، تقتضى اكتشاف ما كان بينهما من تاريخ مشترك، واكتشاف عوامل الاتفاق والقربى التى هى موجودة فعلا والتى تستطيع أن تجمع بينهما فى عمل مشترك عظيم ..

وتصفية ما بين المذهبين، تقتضى معرفة البناء التاريخى لكل منهما، واكتشاف التخوم المشتركة بينهما، وفهم فلسفة التوقيت التى تعمل فيهما وتختار بينهما.

لقد ألفنا أن نعطى عوامل الخلف من حرصنا،

وسعينا، أكثر ما نعطى عوامل القرب والاتفاق.. ومن ثمَّ كانت شُقة الخلاف تمضى دائماً نحو الاتساع .

أما الآن، فسنقصر محاولتنا على كشف عوامل القرب.. كشف الأرض المشتركة التى نقف فوقها جميعاً مهما شَطَّ بنا الخلاف .

* * *

تُرى، هل يكون من حسن حظ العالَم أن تنحصر خلافاته الكبيرة والشاقة اليوم بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى..؟؟

ربُما ..

فالدولتان ـ عَبر التاريخ ـ كانتا دائما أقرب إلى المودة المتبادلة منهما إلى الحقد والعداوة .

وبعد ثلاثين عاماً من قيام الدولة الأمريكية، بعد انتصارها فى حرب الاستقلال ـ إلى أيامنا هذه، والعلاقات بين البلدين طيبة فى مجموعها ..

ويوم وقفت بريطانيا وفرنسا، تغذيان الحرب الأهلية

الأمريكية، وتناصران الجنوب فى تلك الحرب، تقدمت روسيا القيصرية بمساعدات هائلة أحبطت عمل فرنسا وانجلترا.. وكان هُتاف الأمريكان يومئذ "الله يبارك الروس"..!

ولعلّ مخاوف أمريكا من روسيا، لم تأخذ شكلها الحاد إلا يوم انتصرت الثورة الشيوعية، وقام الاتحاد السوفيتى .

فغَداة هذه الثورة، سمحت أمريكا لنفسها أن تتدخل بقوة السلاح فى شئون روسيا وضد حكومتها .

كما سمحت لنفسها أن تمتنع عن الاعتراف بالحكومة الجديدة مدى أربعة عشر عامًا ـ من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٣.

على أن فى التاريخ ظاهرة عجيبة. تُشير إلى أن فى علاقات روسيا وأمريكا وشيجة هامة لعلهما عاجزان عن رؤيتها.

ففى الحرب العالمية الأولى.. وقفت الدولتان فى

جبهة واحدة..

وفى الحرب العالمية الثانية.. وقفت الدولتان فى جبهة واحدة..

والعبرة فى الحرب الثانية ألمع منها فى الحرب الأولى.. فالحكومة الروسية التى خاضت الحرب مــع أمريكــا فى الحرب الثانية ـ كانت حكومة شيوعية ..

وهذه الحكومة كانت فى حلف مع هتلــر.. حــتى كشفت لها الظروف الصحيحة أن مكانها ليس مع هتلر.. وإنما مع حليف آخر.. وكان هذا الحليف ـ أمريكا.

أليس ثمة سرّ خفى يجمع بين الدولتين فى ســاعات الخطر.

بلى.. هناك سر، ولكنه ليس خفيا.. بل هو واضــح وماثل فيما بين الدولتين من إمكانيات طبيعية للتفــاهم والتآخى..

ماذا تنقم أمريكا إذن من روسيا.؟

وماذا تنقم روسيا من أمريكا.؟

لابد أن النزاع بين المذهبين الرأسمالى، والشيوعى — على رأس عوامل الخلاف بين الدولتين .

وسوف نعرض لهذا العامل عندما نتحدث عن الخلاف المذهبى .

أما الآن فنرى أن من أسباب نقمة أمريكا على روسيا، أنها:

أولا ـ مسئولة عن معظم الانتفاضات الثورية فى بلدان آسيا وأفريقيا ..

ثانيًا ـ مسئولة عن الحملات التى تعرضت لها أمريكا فى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا..

ثالثًا ـ مسئولة عن التغرير الذى تُوقعه بالشعوب الأخرى، مما يجعل هذه الشعوب تتخذ من روسيا صديقاً لها.. وكل صداقة لروسيا ـ تعنى عند أمريكا ـ العداوة لأمريكا ..

رابعًا ـ محاولاتها المتنكرة لبسط سلطانها وسيادتها ونظامها على العالم .

ونحن لا نخمن هذه الأسباب ولا نفتعلها.. وإنما هي مبسوطة فى كل الكتابات الأمريكية التى كتبها كبارُ كُتَّاب أمريكا ومعلقيها السياسيين.. ومبسوطة كذلك فى التصريحات الرسمية الكثيرة للمسئولين الأمريكان ..

• فأما مسئولية روسيا عن ثورات التحرير فى العالم. فهو شرف عظيم تضفيه عليها أمريكا، وهى لاتدرى ..

ونحن بدورنا نُشرك أمريكا فى هذا الشرف.. باعتبارها صاحبة ثورة من أنظف وأعظم ثورات التاريخ.. ثورة كانت الطليعة للثورة الفرنسية نفسها، ولكل ثورات التحرر فى أوربا خلال القرن التاسع عشر، ومطالع القرن العشرين..

وحتى إذا كانت روسيا مسئولة وحدها عن ثورات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فهل فى ذلك ما تبْتئس به أمريكا..؟؟

إننا نفهم أن يثير هذا مغايظ بريطانيا، وفرنسا، لأن العقد الذى انفرط بهذه الثورات كان عقدهما.. أما

الولايات المتحدة، وطن جيفرسون، وواشنطن، ولنكولن. فما لها فى ثورات التحرير عدو تخشاه .

* * *

• أما مسئوليتها عن الحملات التى تعرضـــت لهـــا أمريكا فى كثير من بلدان آسيا وأفريقيا.. فالمسئول الأول والأوحد ـ أمريكا نفسها منذ أسلمت "ذقنها" لحلفائـــها، وخاضت معهم أوحال أقصى استعمار مارسوه وفرضـوه على الناس ..

عندما حرص "ترومان"رئيس الولايات المتحدة علـى أن يكون أول مهنئ بقيام دولة "إسرائيل" دون أن يُدخل فى اعتباره الفطِن ، التبعات السياسية لهـــذه المبـــادرة.. ودون أن يُحامل العرب فى مأساتـــهم الكـــبرى، ولـــو بالتريث قليلا فى إرجاء التهنئة..!!!

عندما فعل هذا، أثار حفيظة العرب بلا ريـــب و لم تكن روسيا صاحبة الفضل فى هذه الإثارة .

وعندما تُعلن حكومة مصر إلغـــاء معـــاهدة"٣٦"

وتُرسل بريطانيا شواظا من نار على شعبها فى القنـــال ثم يقف وزير خارجية أمريكا ليعلن" أن حكومـــة مصـــر لا تملك الحق فى إلغاء المعاهدة" ويُناصر بهذا التصريح كل أعمال البطش البريطانى ضد شعبنا.. فإن مثل هذا الموقف يثير نقمتنا لا ريب.. ولم تكن روسيا صاحبة الفضـــل فى هذا..

وعندما تفاجئنا حكومة الولايات المتحدة بســـحب تمويل السد العالى، وفى ساعة خَطِرة من ساعات حياتنا.. ثم تشفع عملها هذا، بإشهار إفلاسنا على العالم أجمـــع، بطريقة لا ذوق فيها ولا عَدل ..

فإن هذا الموقف يدعو للغضب لا ريب.. ولم تكـــن صاحبة الفضل فيه ـ روسيا ..

وحين تحمل أمريكا، هيئة الأمم المتحدة على حرمان الصين من أبسط حقوقها وهو عضوية المنظمة العالميـــة المذكورة.. فإن ذلك يثير الحفيظة، والريب.. وليســـت روسيا صاحبة الفضل فى هذا...

وهناك مواقف كثيرة تتَّسم بالرداءة، تورطت فيـــها سياسة الولايات المتحدة.. ولكننا لا نستطرد فى ذكرهـا، لأن تصفية الأحقاد، لا إشعالها ـ غرضنا من هذا الكتاب.

وما كنا لنسوق هذه الأمثلة، لولا أن المقام يتطلـــب ذِكرها حتى نصحح موقفـــاً، يتطلـــب ســـلام العـــالَم تصحيحه.

* * *

• أما مسئولية روسيا عما تعتبره أمريكـــا تغريـــراً بالشعوب التى تُسارع إلى صداقتها؛ فلنسأل التاريخ عـــن هذا.

عندما قامت حكومة"لينين" فى روسيا، بدأت عملها بنشر الإتفاقات السرية التى كانت قـــد أبرمـــت مـــن بريطانيا، وفرنسا وقيصر روسيا.. والـــتى وُزع العـــالم بمقتضاها بين الدول الثلاث كغنيمة باردة ..

وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقيات السرية كـــانت تمكن روسيا من فرصة ذهبيـــة، وتعطيـــها اســـتانبول،

والدردنيل، وبحر مرمرة، ومنطقة واسعة تتاخم القفقاس .

على الرغم من هذه الفرصة الذهبية النادرة، فقد أعلن "لينين" تنازل روسيا، بل اشمئزازها من هذه الصفقة المسروقة.

لتقل أمريكا فى دوافع هذا العمل ما تقول.. ولكن ألا تعترف أنه عمل عظيم باهر..؟؟ وأليس مثل هذا العمل يدعو إلى حب أصحابه وتقديرهم ..؟؟

وهل هذا الحب ثمرة تغرير وخداع ..

إن الاتحاد السوفيتى فى منطقة كمنطقة الشرق الأوسط لم يخلق لنفسه عدوات بين أهلها.. عدوات تحمل الناس على الخوف منه فضلا عن بغضه .

تمامًا مثل الولايات المتحدة قبل أن تحمل أوزار حلفائها.

لقد ثار العرب ثورتهم الكبرى عام ـ ١٩١٦ـ..

وفى تلك الثورة، ناصروا الإنجليز والفرنسيين ضد الدولة العثمانية ـ أملا فى الظفر بحريتهم التى وعدهم بها

الإنجليز والفرنسيون.."!"

ولكن قبل هذه الثورة بشهر واحد، كانت بريطانيـا وفرنسا قد وقّعتا مع القيصر اتفاقية "ســايكس بيكــو" ومزّقوا بها العرب شرَّ ممزق.. فى نفس الوقـــت الــذى يقولون للعرب فيه:ساعدونا ضد تركيا، ولكم الحريـــة كافة والاستقلال كاملا ..

و لم يفضح لنا هذا الإتفاق الغادر سوى حكومـــة الاتحاد السوفيتى ..

* * *

وفى إيران ــ ورثت حكومة "لينين" جزءًا كبــيرًا كانت تحتله حكومة القيصر، وفَق معاهدة ســرية بــين القيصر وبريطانيا.. فما إن تسلم"لينين"زمام الحكم حــتى سحب جيوش بلاده فوراً.. وبدلا من أن تصنع بريطانيــا صنيعاً مماثلا، زحفت بجيوشها شمالا، واحتلــت جيمــع إيران..!!!

أفيكون هذا العمل من روسيا تغريراً وخداعاً ..

وفى تركيا ـ حين قام .. "أتاتورك" بثورته وألبت بريطانيا ضده كل دول العالم فرفضت الاعتراف به.. واستولى الجيش البريطانى على نصف أراضى تركيا، واحتلت إيطاليا جزرها ـ لم يسارع لنجدتها سوى الاتحاد السوفيتى الذى اعترف بحكومة "أتاتورك" ..

وأحبط المشروع البريطانى الفرنسى الإيطالى اليونانى الذى كان يهدف لتمزيق تركيا واقتسامها، وأمست معاهدة "سفر" المشهورة، هباء فى هباء ..!!

أكان هذا العمل تغريرًا وخداعا ..

ومصر ـ عندما وقف الاتحاد السوفيتى يناصرها فى مجلس الأمن أثناء عرض قضيتها عليه عام ١٩٤٨.

وعندما امتنع الغرب عن إمدادها بسلاح قبض ثمنه مقدما فبسط الاتحاد السوفيتى يده إليها بالسلاح .

وفى حرب السويس عندما وقف "بولجانين" يعلن باسم حكومته وبلاده أن الاتحاد السوفيتى قادر على قصف المدن البريطانية والفرنسية بالصواريخ الموجهة، إذا

لم تنه بريطانيا وفرنسا عدوانهما المسلح ..

أكانت هذه المواقف تغريرًا وخداعا..؟؟ كيف نعتبر تمويل المرحلة الأولى فى بناء السد العالى مثلا ـ ضربا مـــن التغرير. ونحن نرى البناء يُشاد ويرتفع ..؟

الحق أن أمريكا تســـتطيع أن تكتشـــف بنفســـها ولنفسها، أن حُبَّ الشعوب التى تناصرها روسيا لروســيا ليس ثمرة خداع ولا تغرير، إذا جرَّبت هى، ومنحـــت هذه الشعوب قلبها وودها، وعاونتها على نيل حقوقـــها كاملة .

عندئذ ستحبها هذه الشعوب وتحترمها ـ كما أحبت روسيا واحترمتها... وعندئذ ستعرف من طعـــم هـــذا الحب حين تذوقه ـ أنه ثمرة الفهم وحفظ الجميل.. لاثمرة الخداع والتغرير.

أما محاولة روسيا بسط سلطانـــها ونظامها علـــى العالم.. فنود أن نسأل:

هل فى محاولتها هذه ـ إن صحَّت ـ ما يشدّ زنـــاد

البغضاء، ويوسع شقة الخلف بين أمريكا وبينها .."؟!"

لقد عاشت العلاقات ودية وطبيعية بين أمريكا وبريطانيا يوم لم تكن بريطانيا تحاول فحسب بل كانت تبسط على العالم بالفعل سياستها وتفرض عليه استعمارها ..

وفرنسا، صديقة أمريكا وشريكتها فى حلف الأطلسى، ترتكب خلال أربعة أعوام موصولة الأيام والليالى، أبشع أنواع السيطرة، والاستعمار والتخريب .

فهلا تستطيع أمريكا أن تعامل روسيا بالمثل فتهبها صداقتها فى نفس الوقت الذى تحاول فيه روسيا بسط سلطانها ونظامها على غيرها..؟!

قد يبدو هذا السؤال ساخرًا.. ولكننى مع هذا أعنيه.

ثم إذا كان هذا الاتهام صحيحا.. وكانت روسيا تبغى حقيقة بسط سيطرتها وسلطانها؛ فما سبيل الحيلولة بينها، وبين محاولتها..؟

إنها سبيل واحدة.. هى دعم سلطان هيئة الأمم

المتحدة دعماً كاملا، وتمكينها من بسط نفوذهـا علـى الدول الكبرى نفسها، حتى تصير قـادرة علـى كبـح جماحها حين تُحاول الجموح إحداها.

وحين ترتفع تصرفات أمريكا إلى المستوى الـذى تتطلبه سيادة الأمم المتحدة.. وحين تُسخِّر نفوذها لدعـم هذه السيادة، ستكون حقاً قد قطعت الطريق على كـل محاولة فردية لبسط النفوذ والسلطان .

لابد من اكتشاف جميع عناصر التفاهم المشـترك، القائمة والممكنة، فى العلاقات الأمريكية الروسية.. ولابد من تنمية هذه العناصر، ودعمها بما هناك مـن مصـالح مشروعة ومشتركة بين الدولتين ..

فى عام ـ١٩٤٥ـ زار موسكو " أريك جونسـتون " رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومئذ ـ، واجتمع برئيس وزراء الاتحاد السوفيتى، وكان الرفيق "ستالين ".

وقال له ستالين:

"إن الولايات المتحدة ، قد أسدت إلى الصناعة"

"السوفيتية عوناً عظيما . . . ."

"وفى الاتحاد السوفيتى مصانع كثيرة أنشئت "

"بالعون الأمريكى،أو استعين فى إنشائها بالخبرة"

"الأمريكية . . . . "

وقال أيضًا:

"لقد صنع هتلر الأحمق خيراً واحد . . هو أنــه"

"جمع بين الشعب الأمريكى، والشعب الروسى "

"وعلينا ألا نسمح لشىء ما أن يفرق بيننا . . ."

"نعم .. يجب أن نعمل معاً بعد الحرب . . . . "

هذا عن النزاع بين الدولتين .

أما النزاع بين المذهبين، أو النظــامين ـ الرأسمــالى، والشيوعى فأمره هَين إذا نحّينا اللغط وتوخيَّنـــا الفـــهم الصحيح.

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عــــام"١٩١٨"، انتهت معها الزعامة الفعلية لـــ"أوربا" ..

ويومئذ، أخذت تركتها، وميراثها ينتقلان فى تـــدرُّج

وأناة إلى أمريكا بنظامها الرأسمالى.. وروسيا، بنظامـــــها الاشتراكى..

ونستطيع أن نقول: إن أمريكا ورثت "أوربا" ..

وإن روسيا ورثت "نقيض أوربا" ..

أى أن أمريكا أخذت النظام الاقتصادى الرأسمـــــالى الذى كان قائمًا فيها بالفعل حتى قبل أن ترث "أوربا" ثم صارت به فى امتداد صاعد ..

وأما روسيا، فأخذت من هذا النظام نقيضَه المتفــوق عليه..

وإذا أخذنا، فى تجوُّز، بنظرية الديالكتيك، قلنــــا: إن أوربا قدّمت لعصرنا الحديث الشىء ونقيضه .

والشئ، ونقيضه ـ يعملان اليوم على صعيد المرحلـة التاريخية الماثلة.. وسيُثمران معاً النتيجـــة المركبـــة الـــتى ستتضمن خير ما فى الشىء وخير ما فى نقيضه .

والشىء هنا ـ هو الرأسماليـــة، بكـــل فلسفاتـــــها ونظمها..

ونقيضه ـ هو الاشتراكية، بكل نظمها وفلسفاتها..

وفى كل مجالات الطبيعة نجد الأشياء، وأضدادها تعمل معاً وتتفاعل معًا لأداء غرض واحد هو: استمرار الحياة، والكشف عن إمكانياتها الوافدة الواعدة.. دون أن ينشب بينها قتال..

فلماذا لا يقوم. فى المجال الاجتماعى "نفس التعاون بين الشيء ونقيضه.. بين الرأسمالية، والاشتراكية.."

ولماذا لا يكون لنا ـ نحن البشر ـ دورنا فى دَعم هذا التعاون وتقُّبل قوانينه..؟

لستُ أدرى مدى ما فى وجهة نظرى هذه من خطأ محتمل.. ولكنى أحسب أن فيها بصيصًا قويمًا من صواب، يمكن أن يكبر وينمو بما يُضيفه إليه القارئ من تفكيره وذكائه.

وأحسب كذلك أنَّ من ضرورات الإخاء البشرى، والسلام العالمى، أن تدرك الرأسمالية، والشيوعية، أنهما

يصنعان معاً مصيراً إنسانيًا واحدًا..

ولن تكون لأحداهما الغلبة ـ حين تنسحب الأخـرى من الميدانـ ..بل ستكون الغلبة للتقدم الإنسانى قاطبـــة، وللقافلة البشرية بأسرها.

إن حركة التاريخ تقرر دائما، وتختار النهج المُلائـــم لسير التقدم الإنسانى.

وهُتاف كل فريق بمذهبه، وفُتُونه بنظامه، لايعنيـــان خِداع هذه الحركة الذكية الواعية.. فـــهى ماضيـــة إلى البشرية كلها. لا تُحابى، ولا تتملق .

ونقد كل من المذهبين للآخر، لم يعـــد يســـتوجب العداوة والحقد، والحرب .

كما أن أى نقـــد يوجـــه إليـــهما مـــن خـــارج معسكريهما، يجب أن يجد فرصته فى الإفصاح والتعبـــير.. سيما وكل مذهب يريد أن يكون الرائد للتقدم الإنسانى، ويزعم أنه على ذلك قدير.. فلا أقلَّ إذن من أن يســـمح للذين سيمضون وراءه أن يُناقشوه، ويتأكدوا من جدارته

وصلاحيته .

ولقد قام من أقطاب الرأسمالية نفسها من وجَّه إليها النقد المرير.. وطالب بتطويرها ..

ذلكم هو"أريك جونستون"، وهو من كبار الشخصيات الأمريكية التى تعتز أمريكا بتفكيرها، وجهودها والمنادى بفلسفة جديدة لرأسمالية ديمقراطية..

ففى الحفل الذى أقيم تكريما له لمناسبة انتهاء مدته كرئيس للغرفة التجارية الأمريكية. قال بالحرف الواحد :

"إن تعريف الرأسمالية فى المعجم، أصبح ميتا "

" كالحيوانات المنقرضة . . . ."

"الرأسمالية: حشد رأس المال.. الرأسمالية: نفوذ . ."

"رأس المال، متى انحصر فى أيدى رجال قلائل . "

"وقد عاش رجال الأعمال أمدا طويلا فى ظلال "

" هذا التعريف، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من "

"عهود السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين . ."

"أما الآن.. فقلبوا أنظاركم فى أرجاء الأرض ؛ "

"تروا مـــا تمّ فيها . لقد زالت الرأسمالية القديمة ، "
" أو كادت . . . . "
"صُفيِّت فى روسيا . . وهى فى حشرجة الموت . . "
"فى أوربا . . وتكاد تختنق فى بريطانيا . . . ."
"ولقدكانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة "
"ودراسة .. وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى "
"أقطار الأرض فرأيت مصرع الرأسمالية بعينى رأسى "
"وقد اقتضانىعملى أيضاً أن أتجوَّل فىأمريكا مرارا "
"لا حصر لها..؛ فخرجت من رحلاتى كلها بـــهذه"
"العبرة: إما أن نُساير المبادئ الحــــرة وإما أن . . . "
"نواجه خطر الانقراض.. هذا هو ناموس الحياة : "
"المسايرة .. أو الانقراض . . . .!! "

* * *

كذلك قامت الشيوعية بنقد نفسها، نقـــدا عمليـــا تجلّى فى التعديلات الكثيرة التى كانت الماركسية تخضـــع لها على ضوء التطبيق العملى فى أول حقل لهـــا، وهـــو

روسيا..

كما أن المآخذ التي أدان بـــها"خروشوف" ســـلفه الرفيق "ستالين"، كانت فى جوهرهـــا اعترافـــا ضِمنيـــا بوجود نقاط ضعف فى النظام نفسه تحتاج إلى تصويـــب وتقويم.

ولقد نَشر كاتب أمريكى كبير كتابا بعنوان"قضيـــة السلام" ونُشر ملخص كامل له باللغة العربية ..

وعلى الرغم من أننا لانوافق المؤلف فى بعض النقاط، إلا أنه ـ فى مجموعه ـ يمثل وجهة النظر التى نقررها هنـــا. وهى أن المذهبين قادران على أن يعيشـــا معـــاً عيشًـــا حميدًا.. وعلى أن النقد يجب أن يكون موضع حفاوتهما، إذا كانا يثقان بنفسيهما..

وقد قام المؤلف نفسه، وهو "أمرى ريفز" بمناقشـــة الرأسمالية، والشيوعية .

وعلى الرغم من أنه أمريكى، ولا يؤمن بالشـــيوعية، فقد قال قولا فيه كثير من الاعتدال، والحكمة .

قال تحت عنوان"إخفاق الرأسمالية "

"كانت الــرأسمالية هى الفلسفة الاقتصادية السائــدة"

"عند مولد النهضة الصناعية وكانت ثورات التحرير "

"السياسية قد حققت غاياتــها فى بداية القرن التاسع عشر"

"وكان مــن الطبيعى أن تصبح المُثُل العليا السياسيــة "

"التى انتــصرت، هى المبادئ الأساسيــة الســائــدة"

"فى ميادين الاقتصاد والصناعة والتجارة فى فاتــحــة "

"العصر الصناعى وهكذا ســارت حرية الاجتهــاد، "

"وحرية التجارة، وحرية المنافسة جنبــا إلى جنــب "

"مع الحرية السياسية . . . . "

"على أن الاقتصــاديين من دعاة الــحــرية المطلقــة "

"للاجتهاد، عجــزوا عن أن يدركوا أن الحريــة فى "

"الشئون الاقتصادية لا يمكن أن تكــون مطلقة، إلا "

"إذا كانت المساواة التامة المطلقة قائمة بين الأفــراد "

"وإلا إذا ألغى الميراث ، وصار على كل إنسان أن "

"يبدأ من البداية ـ الأمــر الذى ليس ممكننا ـ . . . ."
"ومن الجلى أن النظــام الموجــود الآن فى الــدول "
"الرأسمالية ، لايمكن أن يُسَمــى ـ اجتهادا حرا مع "
"احتكار كثير من الصنــاعــات احتكــارا يمنــع أن "
"توجد محاولات جديدة . . . . "
"ومن أجل هذا، خَلقت الحــالة الصناعية الحــديثة "
"ثروات لا تتطاول إليها الأحلام للأقوياء من الوجهة "
"الاقتصادية، وفقرا ونقصا فى الحرية للملايين الذين "
"صار عملهم مجرد سلعة . . . . !! "

* * *

ويقول المؤلف نفســه تحــت عنــوان "إخفــاق الاشتراكية":

"كان المثاليون الذين يؤمنون بالمجتمع الجامع مقتنعين "
" بأنه متى تمّ تــحويل ملكية الأرض ووســائــل "
"الإنتاج من الأفــراد إلى الدولة؛ فــإن المســاواة "
"الاجتماعية تتحقق، فيوجد مجتمع جديــد سعيــد "

"يعيش فى رَغد . . . ."
"علَى أنه تبين بعد سنــوات قليلة من قيام الثــورة "
"الشيوعيــة أن المســاواة الاجتماعية والاقتصــادية "
"لاتتفق مع طبيعة الإنســان " ! " فإن الاجتــهاد "
"الخاص لازم للتقدم ، ولا مَعدَى عن مقــدار من "
"المِلكية كنتيجة للحرية الإنسانية وقد ظلَّت الأمــة "
"الروسية عشرين عاما تعمل بهمة وإخلاص فى سبيل "
"إحراز قــوة صناعية عظيمــة ، وإنتاج الأسلحــة "
"اللازمة للدفاع عن بلادها إذا هُــوجمت ولكــن "
"مستوى المعيشة ظل منخفضا جدا على الرغم من "
"أرقام الإنتاج الضخمة وقد اضطر الشعب السوفيتى "
"أن ينــزل عن حريته الفــردية، وعن كل أمــل فى"
"حياة رغيدة قريبة، وفى إنتاج سلع الاستهلاك التى "
"يحتاجها ليتسنَّى له قصر جهوده على صناعة مــواد "
"الحرب.. وقد أثبت الهجوم الألمانى على روسيــا فى "
" يونيو عام ـ ١٩٤١ـ أن الاهتمام بالصنــاعات . . "

"الحربية كان أمراً لابد منه وجـاء الانتـصـار فى "
"ستالنجراد دليلا على مبلغ نجاح هذه الخـطـة . . "

* * *

وبعد أن يطنب "أمرى ريفز" مؤلف "قضية السـلام" فى نقده للاشتراكية مثل إطنابه فى نقده للرأسمالية، ينتـهى إلى هذه الكلمات المعتدلة الحصيفة :

"لامحل هناك للجزم بشىء فيما يتعلـق بالنـزاع بين"
"الرأسمالية، الشيوعية فإن كلتيهما تعلن أن غايتهـا "
"رفع المستوى المادى والثقافى للجماهيـر . . . . . ."
"أمـا أن يكون هذا النظام، أو ذاك ـ أقـدر على "
"إدراك هـذه الغـايـة، فأمر يجب أن يتقرر بعد "
"التجربة، لا بأن يحطم كل منهما رأس الآخر . . . ."
"وإذا كان شعب معين. كالشعب السلافى تميل بـه "
" تقاليده التى مضى عليها قرن إلى الملكية العامة ، "
"وإذا كانت شعوب أخرى، كاللاتينية والأنجلـو . . "
"السكسونية، تميل بـها تقاليدها إلى الملكية الخاصة "

"فإنه ليس هناك أدنى سبب يمنع هذه النظم المختلفة "
"من الوجود معًا، والتعاون معًا . . . ."

* * *

هذا هو الموقف الفكرى والسياسى الذى ينبغــى أن يكون طابع العلاقات بين المذهبين المتنازعين .. الرأسماليـة والشيوعية .

وليس من حق دُعاة المذهبـــين أن يَغلــوا ، أو أن يُفاقِموا مشاعر الشك والتربص .

وينبغى أن يحمل كل فرد تبعاته حيال هـــذا الــذى أسميناه "موقف نزاع" بـــين الرأسماليـــة والشـــيوعية .. مُدركين جميعاً أن إقرار السلم،والإخاء فى زماننا، رهــن بإحراز قدرة على التسامح، والفهم، تستعلى على كـــل تعصب وبغضاء ..

مال ، بغير رأس ..

تحدثنا عن سير التجارة عَبر التاريخ، ورأينا كيـــف ارتبطت بالحروب دائمًا، حتى اصطنعت أوربا شعاراً، بل

عقيدة تقول:

"الحرب تنعش التجارة" ..

ولقد تطورت التجارة تطوراً ضاراً، حتى صـــارت رأسمال محتكر متسلط.. وتطورت الرأسمالية، حتى بلغــت أوج امتدادها، فإذا هى استعمار وحروب ..

والناس معذورون، حين يُحمِّلــــون "رأس المــال" المسئولية الأولى عن الحرب وتخريب عالَمهم .

فسلوك الرأسمالية لا يشجع أبدًا على الثقة بها .

إنما تخون، حتى وطنها، عندما تتعــرض مصالحــها للضرّ والخطر..

فى عام" ١٩٣١ "لم يكد الرأسمال البريطانى يُحـــس بوطأة الأزمة العالمية.. حتى وجَّه لبلده بريطانيا ضربـــة قاصمة..!

فقد قام أصحاب رءوس الأموال بتهريب أموالهـــم خارج بريطانيا، واضطرت الحكومــة الانجليزيــة تجـاه عملهم هذا، أن تقرر فصل الجنيه الاسترلينى عن قاعدتــه

الذهبية.. فهبطت قيمته فوراً إلى ثلثى ما كان عليه ..!!

الناس معذورون؛ لأن ظواهر كثيرة تَجُبّه رأس المــال بالاتمام.

• ففى الأزمة العالمية عام"١٩٣٠"، توقفت المصـــلنع وأجدبت الحقول، وترك الفلاحــــون فى كـــل العـــالم محاصيلهم، أو كادوا يتركونها فى مكانها من الحقــــول.. لأن أثمانــــها حين تُباع، لا تفى بنفقات جنيها وجمعها.. وملأت البطالة والمجاعة كل البلاد.

كل الصناعات توقفت أو كادت.. ما عدا صناعـــة واحدة، زادت ازدهارا، تلك هى صناعة الأسلحة ..!!!

• وتعترف بريطانيا زعيمة الرأسمالية يومئذ اعترافا له قيمته فتقول فى المذكرة الـــتى أرســـلتها إلى الحكومـــة الأمريكية عام"١٩٣٢" بشأن ديون الحرب :

"إن الآلام التى تُعانيها البشرية لا يرجع سببهـــا "
"إلى جحود الطبيعة ولكنه يرجع إلى خطأ النظم . ."
"التى تسير عليها . . . ."

• ويقف "هتلر" عام ١٩٣٩، فيقول فى خطاب له:

"على ألمانيا أن تُصدِّر، أو تموت " ..

ويرد عليه"هدسون" الوزير البريطانى من لندن، فيقول:

"وبريطانيا أيضا، عليها أن تُصدِّر أو تموت "..!

وهكذا أشعل التراع على التصدير والربح، أبشع حرب فى التاريخ..!

• ويحدث توافق سعيد، بين الحرب الكورية عام"١٩٥٠" وبين الأزمة الأمريكية التى سبقت حرب كوريا وتبدو العلاقة بين الأزمة، والحرب واضحة مُبينة .

فقبيل حرب كوريا ـ كما يحدثنا كتاب "الحرب والشعوب" للأستاذ بدر السباعى ـ، هبط مستوى الإنتاج الأمريكى إلى ٢٢% ..

وزادت قيمة البضائع المخزونة، ٦٠% ..

وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية، ١١%..

وهبطت أرباح الشركات الرأسمالية، ٢٥%..

وبلغت الافلاســات ، ٧٥% ..

ووصل عدد العمال العاطلين، ثلاثة ملايين، ونصف مليون عاطل ..

فلما نشبت الحرب الكوريـــة، أخــذت الأزمــة الاقتصادية الأمريكية تنقشع، ونشرت مجلة "الولايـــات المتحدة والعالم "تقول:

"إن الحرب الكورية أوجدت أوضــاعــا قادرة على"
"إبقاء الإنتاج فى مستوى رفيع . ولقد جــاءت هذه "
"الحرب فى أوانــها"! "؛ لتدفن شبح الأزمــة الذى "
"كان يرعب رجال الأعمــال الأمريكيين ، والــذى"
"أقضَّ مضاجعهم منذ نــهاية الحرب العالمية الثانية.!!"

• وبعد زيارة "خروشوف" لأمريكا مباشــرة، يعلــن مسئول أمريكى، و"سناتور" كبير: ـ

"إن وقف الحرب الباردة ، خطر على أمريكا . لأنه "
"سيسبب لتجارتها المتاعــب ، ولمصانعها التوقف ، "
"ولعمالها البطالة . . . ."

ولابد لِنُشدان السلام، فضلا عن إقراره، أن يُقـــرر مصير رأس المال أولا ..

والبشرية حتى يومها هذا، لا تستغنى عن المـــال، ولا عن التجارة ومن ثَمّ، فنحن لا ننادى بإلغائها. إنما نـنادى بضرورة تطويعها لمبادئ التقدم الإنسانى المـــاضى نحـــو بشرية واحدة جديدة. لا استغلال فيها ولا عدوان.

أجل.. نريد مالا بغير رأس .. إن صحَّ هذا التعبير .

هل تريد الرأسمالية ، القناعة ، أم الجشع..؟

هل تريد رحمة الناس، أم هلاكهم ..؟

هل تريد تقدم البشرية، أم تخلفها وانتكاسها ..؟

إنـــها تردد دائمًا ـ أنـــها تريـــد تقـــدم النـــاس ورخاءهم وسعادتـــهم.. وحسن هذا.. وعليـــها إذن أن تبحث لنفسها عن نـــهج لا يجعل الاســـتغلال أوضـــح خصائصها، والحرب أصدق نتائجها ..!!!

إن الاعتزاز بالرأسمالية، يلوذ أكثر ما يلـــوذ بمنطـــق واحد. هو: أنـــها النظام الذى يحقق حرية الفرد.. هـــذه

الحرية اللازمة لكل نشاط إنسانى عكس الاشتراكية ، التى تُعلى سلطان الجماعة على كل سلطان..

ونحن نسأل: ألا يمكن أن يسود سلطان الجماعة سيادة مقيدة بالحقوق الأساسية الثابتة للفرد ..؟؟

ونجيب: بلى، يمكن هذا. وهو ما نريد أن يسير عليه النشاط الاقتصادى دوما ..

ثم أين حرية الفرد فى الرأسمالية ما دامت تعتمد فى ازدهارها، على المنافسة غير المشروعة.. وعلى الاستغلال والحرب..؟؟

هل تُبقى المنافسة الظالمة. والاستغلال، والحرب، حرية للناس ..؟

بل أين "حرية التجارة" نفسها، وهى أهم مميزات الرأسمالية وأبرز خصائصها ..؟

لقد انتهت التجارة، يوم قامت الحواجز الجمركية، والحماية الجمركية.. وأمسى نظام الاقتصاد الحر غير ذى موضوع..!

تماما، كما انتهت حرية الفرد حتى داخل الدول الرأسمالية نفسها يوم قامت التكتلات الكبيرة من أصحاب الصناعات الكبرى والرأسمال المكتتر ..

إن تفادى المصاير المظلمة التى تُسببها الرأسمالية المحتكرة يبدأ من نقطة هامة كل الأهمية. ألا وهى: تجريد رأس المال من سلطانه ومن حقوق السيادة التى انتحلها لنفسه .

وهذا العمل، لا يُناط بأمريكا. ولا يُناط بروسيا، ولا بأية دولة من الدول مهما يكن شأنها.. إنما يُناط تنفيذه بهيئة الأمم المتحدة رأسا .

أما كيف يكون ذلك.. فنرجو أن نتحدث عنه ، بعد فراغنا من النقطتين التاليتين ..

* * *

ميثاق الإنسان ..

كما أن تجريد رأس المال من سلطانه، أمر محتوم لبناء عالمنا الواحد.. كذلك إلغاء الأحلاف ، أمر أكثر حتمية.

فالأحلاف، كما تبينا من قبل، إنما يراد بها حماية مصالح خاصة للدول المتحالفة.. كما أنها كالخطايا: تنادى بعضها بعضا .. وبالتالى تمزق أواصر الإخاء والوحدة ، بما تشيعه فى صفوف العالم من تكتلات متنابذة ..

ومن التناقض الشاذ الذى تنطوى عليه علاقات عالمنا. أن تقوم "هيئة أمم"لها الكلمة العليا كما هو مفروض.. ثم تقوم أحلاف فى كل مكان من الأرض بدافع التربص والإعداد للمغامرة البشعة الكبرى ..!

لابد للبشرية أن تحتفل فى يوم قريب بحرق جميع وثائق تلك الأحلاف .. من حلف الأطلسى ، إلى حلف وارسو ..

وما كان قبلهما، وما جاء بعدهما من أحلاف ..!

ولقد أعلن الاتحاد السوفيتى عن استعداده لإلغاء"حلف وارسو" فور إلغاء حلف الأطلسى ..

وما ينبغى أن يكون أقطاب الأطلسى أقلَّ حرصا

على السلام.. هذا السلام الـــذى يتطلـــب وأد كـــل الأحلاف.. وإنـــهاض حلف واحد وميثاق واحد.. هـــو ميثاق الإنسان .!

قد يشق إلغاء الأحلاف على الدول التى تستمد مـــن الأحلاف طمأنينتها ..

ولكن لتعلم ، بل لتستيقن أنها طمأنينة كاذبة، تلـــك التى تنتظرها من سياسة الأحلاف ..

فى يوم"٣٠" أكتوبر عام ١٩٤٣، هَوَت أفئدة الناس إلى "موسكو"حيث كان"مولوتـــوف" ممثـــلا لروســـيا. و"هل" ممثلا لأمريكا.و"إيدن" ممثلا لبريطانيا" و"فو" ممثلا للصين .. يوقعون وثيقة من الوثائق الطيبة يقولون فيها :

"إن المجتمعين يدركون الضرورة الداعية إلى ـ هيئة"
"دولية عامة ـ تعمل على استتباب السلام، والأمن"
"بين الدول . . . ."

ولقد قامت بعد هيئة الأمم المتحـــدة.. فلمـــاذا لم يصادفها التوقير الواجب، ولماذا لم تحظ بالثقة التى تغـــنى

عن التماس أحلاف وتكتلات تشلّ عملها، وتضائل مــن قدرتـــها ..؟؟

هناك عامل له أهميته، وخطره ، هو المســئول الأول عن هذا..؟؟

ألا وإنه التقوقع داخل الحـــدود الخاصـــة، وإربـــاء الشعور القومى على الحسّ الإنسانى؛ والعالمى ..

كل دولة تنشد أهدافها الخاصة، وتفكـــر لنفســـها وتشعر بذاتها وحدها ..

وهى بالتالى لا تستطيع أن تقف وحدها لتحقيـــق أغراضها..

وعندئذ تلتمس لها حليفا، أو حلفاء ..

أما حين تنشد الدول أهدافا عامة تقوم على المبـــادئ الإنسانية العامة.. وحين تعيش كل دولة بإحساس إنسانى عميم؛ فيومئذ يتأتى لها جميعًا وبصورة تلقائية، توقير هيئة الأمم، والثقة بـــها والاعتماد عليها .

إن مغادرة الأنانية، والتفوق على الذاتية، بالنســـبة

للشعوب وللحكومات ـ ضروريان لإقرار سلام صحيح وبناء إخاء وثيق.

ولابد من أن تقوم الثقافات جميعاً على هذا الأساس من اليوم ..

ولابد من أن تَشيع بكل وسائل التثقيف، والمعرفة والدعوة، كلمة "إنسان" وكلمة "عالمنا"

عالم بلا أرباب ..

وكل جهد يُبذل لإدراك الخير الإنسانى المشترك مقضى عليه بالحُبوط؛ ما دام على الأرض أرباب يتمسكون بربوبيتهم ..

هؤلاء الأرباب، الذين ناقشنا وجودهم التاريخى والسياسى فى فصل سابق، والذين رأينا همتهم العالية"!" فى تخريب العالم، وتدمير أمنه عَبر التاريخ .

لقد رأينا، كيف كان هناك دائما فى تاريخنا السياسى"ما يسمى بالدول الكبرى "..

كانوا مرة"الأربعة الكبار".. ومرة أخرى "الثلاثـــة الكبار" ومرة ثالثة "الخمسة الكبار" ..

ومن مؤتمر فيينا.. فى بداية القرن التاسع عشـــر، إلى أيامنا هذه، وكلمة"كبار" اصطلاح سياســـى، يحكـــى وضعا"طَبقيا" فى العلاقات الدولية للعالَم ..

وهذا النظام الطبقى.فى الأوضاع السياسية،يجـب أن ينتهى.

لقد قلنا:إننا لا نتجاهل الفوارق الحضارية بين أمـــة وأخرى..

وقلنا: إن هذه الفوارق تجعل بعض الأمــــم أبهـــى مكانا، وأرفع شأنا من غيرها..

لكن ذلك مختلف اختلافا تاما عن التمـــايز الـــذى تصوره نظرية "الدول الكبرى" القائمة اليـــوم . والـــتى قامت بالأمس".

فالمفهوم السياسى للدول الكبرى، يعنى أن العالم كله تحت وصاية مجموعة مـــن الـــدول تفوقـــت صناعيـــا،

وعسكريا.

وهذا الوضع لا يهدم مبدأ من أسمى المبادئ الإنسانية وهو "الديمقراطية" فحسب... بل إنه كان عَبر التـــاريخ من أهم أسباب الاستعمار ، والحرب ..

فجميع المؤتمرات التى شهدها تاريخنا السياسى منـــذ هزيمة نابليون إلى اليـــوم.. كـــانت مرتعـــا لأطمـــاع الكبار..ولو كانت مؤتمرات دولية بـــالمعنى الصحيـــح.. أعضاؤها الشعوب، لا الحكومات، وغرضـــها صـــالح الشعوب ، لا الدول.. لنجحت البشرية مـــن آلام كثـــيرة سببتها "الثروات الكبيرة" ..!

إن وجود نظام عالمى يسمح بقيـــام"دول كـــبرى" و"دول صغرى"، معناه أننا نعيش فى مظاهر تقدم خـــادع موهوم ..

فأى فارق بين "دول كبرى"تحمى من يلوذ بها مـــن الأمم الصغرىاليوم.. وبين أمراء الإقطاع الذين قـــاموا ليحموا من يلـــوذ بـــهم من ضعفاء النـــاس بـــالأمس

البعيد..؟؟

إن وضع"الدول الكبرى" يشبه تماما وضع "أمـــــراء الإقطاع" الذين سادوا وسيطروا غَداة القــــرن العاشـــر الميلادى ..!

فلقد كانت"السلطة العليا" فى أيدى أولئك الأمراء..

تماما ـ كما أن"السلطة العليا" اليوم فى أيدى الـــدول الكبرى..

وكان توزيع هذه السلطة، مما يبعث علـــى الريبـــة والمنافسة، وعلى الخوف من فقدانـــها؛ فتقوم الحروب..

تماما، كما يحدث اليوم فى علاقات الدول الكـــبرى بعضها ببعض..

وكان المثل القائل"تغدَّ به، قبل أن يتعشى بك" هـــو قانون العلاقات بين الأمراء ..

وهو اليوم نفس القـــاعدة، فى علاقـــات الـــدول الكبرى.. ولولا التقدم العلمى الباهر الذى زلزل نوايـــا الحرب، وألقى فى أفئدة الدول الكبرى فزعا كبيرا، لكنـــا

قد شهدنا تبادل الغذاء، والعشاء بينها فى صورة فناء واسع النطاق..!

أفمن أجل هذا، كان جهاد البشرية طوال القرون..؟

وهل ثمة أمل ـ أدنى أمل ـ فى كنس الاستعمار الوقح من عالمنا، وهناك دول كبرى، تحمل رواسب الغزو كلها، ورواسب الضلال كلها..؟؟

أليست المأساة الإنسانية الكبرى التى تُمثل اليوم فى الجزائر، ثمرة إصرار دولة مغرورة على أن تظل إحدى الدول الكبرى..؟

إن هناك"هيئة أمم" قائمة.. ولها رغم نقاط ضعفها ـ كلمة مسموعة ، وجهود فعالة.. فهل استطاعت أن تكفَّ الدم المراق فى الجزائر عن الجريان..؟

هل استطاعت أن توقف حربًا عدوانية مجرمة.. أجل مجرمة وأكثر من مجرمة.. هى حرب فرنسا فى الجزائر..؟

هل استطاعت أن تحول بين فرنسا، وبين شعب كل

ذنبه أنه يريد أن يعيش كما يعيش سكان أى شـــارع ـــ بل أى زقاق فى باريس، أو لندن، أو واشنطن.. أحــــرارًا آمنين..؟؟

لم تستطع "هيئة الأمم المتحدة" للأسف المرير وقــف تلك الحرب الظالمة...

لماذا..؟ لأن التى تمارسها،"دولة كبرى" وتناصرهــا "دول كبرى" أخرى .

كيف نُلغى نظام الدول الكبرى..؟ كيف نُهشـــم هذه الربوبية الكاذبة فى الأرض ، وكيف نذروها مـــع الريح..؟

هذا ينقلنا إلى النقطة التالية ..

* * *

هيئة الأمم المتحدة :

إن هذه المنظمة العالمية، التى شكلناها غداة الحـــرب العالمية الثانية والتى استهلت ميثاقها قائلة "نحن العالم"..

هذه المنظمة ، تُمثل أذكى وأقوم تجاربنا الإنسانية ..

ولكنها كأى مغنم من مغانمنا، ومكسب من مكاسب تقدمنا ـ مهددة بالتفسخ والاندحار، ما لم نبذل فى سبيلها من ذات أنفسنا، كل ما يطلبه بقاؤها، واستمرارها، وتفوقها ـ من إيثار، وولاء، وتضحية ..

ولقد كانت "هيئة الأمم" تتوقع منا البرّ، لا العقوق.. وكانت تنتظر أن نمنحها من الولاء أكثر مما نمنح أمَمَنا، ودُوَلنا، وأنفسنا.

وكان هذا هو الطبيعى؛ لأن الولاء الذى نمنحه إياها، إنما نمنحه فى الحقيقة لأنفسنا.. فهيئة الأمم هى: نحن.. هى أوطاننا، وحكوماتنا، وشعوبنا.. هى عالمنا فى أرقى مراحل تطوره الماثل.

وإن الولاء الإنسانى لهيئة الأمم، لهو الدم الذى يملأ شرايينها بالحياة.. فإذا حَرَمناها ذلك الدم، فأنى لها البقاء.؟

لنتصور دافعى الضرائب فى أيه دولة، امتنعوا عن دفعها، ولنتصور مُواطنى هذه الدولة، وقد تكتلوا جميعاً

فى حركة تمرد ظافر ضد دولتهم.. أتستطيع هذه الدولــة أن تمارس حقوق سيادتـــها ..؟

إن جميع الأمم، وجميع الحكومات والدول، مواطنون فى نطاق هذه المنظمة العالميـــة..وإن أى تمــرد ترتكبــه حكومة أو دولة فىعالمنا كله، يُعطل الهيئة عن ممارســــة سيادتـــها، وعن أداء رسالتها.

إذن ،فطبيعة العلاقات بين المواطنين فى أمة، وبــين دولتهم كاملة الشبه والتماثل، بطبيعة العلاقات بين الأمم كلها، وهيئة الأمم التى تمثل دولتهم العليا ..

وهذا يقودنا إلى التنبيه على مسألة هامة .

فطبيعة العلاقات بين الناس ودولتهم تقوم على الثقــة المتبادلة..وهذه الثقة لاتباع ، فتُشترى.. إنما هى ثمرة قيام كل بواجبه ..وأول واجبات الدولــة تحقيــق التكــافؤ والمساواة، والعدل بين مواطنيها جميعًا..

وحين يختل هذا الميزان فى يدها. وتضطرب مصــاير الناس بين يديها، تبدأ متاعبها، ويهبّ المواطنون لقلبـــها

والتخلص منها.. وحتى إذا لم يستطيعوا ذلك، نجدهم يعاملونها بغير اكتراث وبغير احترام ..

وهذا هو الذى يحدث تماما بالنسبة للعلاقات بين الأمم، وهيئة الأمم ..

فالعلاقات بينهما، يجب أن تقوم على ثقة متبادلة، تثمرها صيانة الهيئة لجميع حقوق مواطنيها الذين هم، أمم العالم وشعوبه..

فإذا أخلّت الهيئة بواجبها حيال هذه الحقوق، فإن التمرد عليها واقع لا مفر منه.. وعدم الاكثراث بها يصير أمرا محتوما..

وهذا هو الذى حدث لـ"عصبة الأمم" فأودَى بها وجعلها أحدوثة ومَثَلا..

ولكن، ما هى الاعتبارات التى يمكن أن تصدّ"هيئة الأمم" عن رعاية مواطنيها ..؟

أهى الأنانية، ورعاية المصلحة القومية الخاصة ..؟

إن هيئة الأمم ليست مؤسسة قومية.. بل عالمية..

وأعضاؤها، شعوب العالم، فالإحســـاس هنـــا عـــالمى لا قومى.. أو هذا على الأقل ما يجب أن يكون ..

إذن، فالقوى التى تحمل الهيئة على التخلـــى عـــن التزاماتـــها لن تكون إلا دخيلة عليها، وإنـــها لكذلـــك فعلا.

وهذه القوى، هى التى سردناها من قبل :

- رأس المال، الذى يعمل اليوم فى نشاط جمـــاعى عالمى..
- الأحلاف التى تقوم على تقسيم العالم .
- السيادة والنفوذ القوميين، اللذين تفرضـــهما دول كبرى.

والعلاج بعد هذا يسير إذا أرادت البشـــرية، وإذا هبَّت لتحقيق ماتريد.

العلاج ـ أن نعزل القوى الثلاث السالفة عن مراكـــز وثوبـــها.. وأن نضعها جميعا فى يد هيئة الأمم.

إن الحديث عن حكومة عالمية واحدة، لم يعد خرافة

ولاوهما والحكومة العالمية، مقبلة لاريب فيها، مثلما أن ضُحَى الغد مُقبل وآت ..

وليس معنى عدم توافر الظروف التى تسمح اليوم بقيام هذه الحكومة ـ أن نكف عن السعى المشترك لتهيئة تلك الظروف .

فإذا أردنا ـ ولا خيار لنا فى ألا نريد ـ فأمامنا الآن أعظم الفرص التى تفضى بنا إليها.. ألا وهى دعم هيئة الأمم.. وطننا الأكبر، وملاذنا الأخير ..

ونحن من جانبنا نرى أنه لابد من أن ننقل إلى اختصاص الهيئة هذه القوى الثلاث :

- السياسة الخارجية ..
- العلاقات الاقتصادية ..
- العلاقات العلمية، والثقافية ..

أما السياسة الخارجية، فلابد من التنازل عنها لهيئة الأمم تنازلا كليًا. ونقل اختصاصات وزارات الخارجية فى العالم كله إليها .

وذلك يقتضى إلغاء وزارات الخارجية، أو تحويلــها إلى وزارات تنفيذية لا غير..

إن التضارب بين السياسات الخارجية للدول، ومـا تعتمد عليه من مناورات ومؤامرات، يقــف وراء كـل كارثة تنزل بالناس..ولابد لهذا، أن تكون للعالم سياســة واحدة تقوم على تنسيق أوضاعه وتحرى سلامته ..

أما"العلاقات الاقتصادية" فيكون إشراف الهيئة عليها إشراف الحَكَم فى مباراة نظيفة.. فهو يرصد نتائجــها فى أمانة، ويمنع اللاعبين فى كلا الفريقين من خرق النظـــام الموضوع ..

وإشراف الهيئة على الاقتصاد الرأسمالى، سيعنى زجره عن الاحتكارات الضارة. وعن الاســتعمار جريـاً وراء الأسواق أو المواد الخام.. كما يعــنى تنســيق علاقاتــه الداخلية بحيث لاينجم عنه ظلم واستغلال .

وإشرافها على الاقتصاد الشيوعى، يعــنى إعطــاءه بوصفه نظامًا جديدًا فرصة التجربة ويعنى زجره عن كـل

كبت وإرهاق.. وإشرافها عليهما معـاً علـى النحـو المذكور لن يعنى إلغاء أحدهما، بل يعنى إلغـاء ظـروف التصادم بينهما.. ويعنى تمكين قانون الاختيار التاريخى من الأخذ بأصلحهما .

أما العلاقات العلمية والثقافية، فينبغـى أن يكـون إشراف الهيئة عليها أكثر من العلاقات الاقتصادية، لأنهـا لاتحمل الحساسية التى تحملها الأولى .

ينبغى أن يكون إشراف الهيئة عليها كليـا ـ مثـل السياسة الخارجية تماما..مع إتاحة الفرصة لكل الأفكـار لكى تخاطب الناس.. وإتاحة الفرصة للناس، كى يعرفـوا كل سَبق علمى، حتى تصبح المعرفة عونـا لنـا علـى التقدم.. لاسلاحا جديدًا من أسلحة التفـوق الأنـانى والغلبة الذاتيـة للمذهبـين الاقتصـاديين السـائدين ـ الرأسمالية، والاشتراكية ..

وهذا الإشراف الذى ننادى به، يُمثل سببًا ونتيجـة فى نفس الوقت .

هو"سبب" لأنه سيعجل بظروف الإخاء البشرى ويجعل من السلام حقيقة وواقعاً ومستقبلا .

وهو "نتيجة" بمعنى أنه لابد أن تسبقه مقدمات تضمن سلامته، وتؤمّن حياة البشرية فى ظله. والسبب والنتيجة هنا يندمجان ويتفاعلان فإشراف هيئة الأمم على السياسة الخارجية لدول العالم، وعلى النشاط الاقتصادى والثقافى رهن بعزل نفوذ الدول الكبرى بادئ بدء عن الهيئة.. وهو فى نفس الوقت الطريق الوحيد، لعزل هذا النفوذ عنها ..

وإذا، اتحدت النتيجة والسبب فى أمر ما على هذا النحو؛ فقد بلغ هذا الأمر من الضرورة الحدّ الذى يجعل التخلّى عنه سفاهة وانتحارا .

أما كيف ننقل اختصاص دول العالم فى السياسة، وفى الاقتصاد وفى الثقافة إلى هيئة الأمم، فيمكن أن ينظم ذلك لجان من الخبراء والعارفين .

قد يقال: إن فى هيئة الأمم شُعُبًا، للاقتصاد، وللثقافة

وغيرهما، ولكن الوضع مختلف كل الاختلاف عما ننادى به..

إننا نريد ألا تكون لأية دولة سيادة على سياستها الخارجية.

ونريد أن تخضع خططنا الثقافية، لإشراف عالمى؛ لأن تنوع الأهواء والمصالح المناطة بالسياسة وبالاقتصاد وبالثقافة هو الذى يخلق التصادم والتراع .

ولنلاحظ جيدًا ـ أننا نقول "تنوع الأهواء والمصالح" فالثقافة مثلا ستظل محتفظة بتنوعها. بعد أن ينفى إشراف الهيئة عليها الضراوة وأغراض الدعاية ..

وفى التنظيم الداخلى لهذا الإشراف ستُراعَى ـ مؤقتًا ـ جميع الفروق الطبيعية القائمة.. وسيظل مجال التنافس المشروع قائما بين النظم الاقتصادية والاتجاهات الثقافية.

وكل ما هناك أن هذا التنافس سيقوم يومئذ لا على أساس من أغراض الدولة،ومآربها الخاصة.. وإنما على أساس الأهلية الذاتية والموهبة الحقيقية لكل من النظم

الاقتصادية، والاتجاهات الثقافية..

نحن نعلم أن التطور الداخلى لكل أمة من الأمـــم، ضرورى لبناء عالم جديد عظيم.

ولكننا نعلم كذلك أن هذا التطور الداخلى، ينبغـــى أن يسير وفق مبادئ إنسانية كبرى وشـــاملة، مادمنـــا صائرين إلى عالم واحد فعلا.

وإذا ما اجتازت"هيئة الأمم" هذه التجربة بنجـــاح وتوفيق، فإن الطريق يومئذ، سينفسح أمامها، فتشـــرف على القانون حتى توحده، وعلى البوليس، حتى يعيـــش الناس داخل بلادهم فى أمن أكثر، وطمأنينة أوفى .

* * *

وعلى العالم ألا ينخدع بمحاولات التجمع التى تقوم الآن، زاعمة أنـــها طريق إلى تجمـــع أوســـع ينتظـــم البشرية كلها، وزاعمة أنـــها تتم وفـــق ميثـــاق الأمـــم المتحدة.. فما أكثر ما ينطوى عليه هذا الزعم من كذب.

وأمامنا مثل واضح، هو:"السوق الأوربية"..

لقد كان من الممكن أن تكون هذه السوق محاولة طيبة، ونموذجا لما ندعو إليه.. لكن لأنها تمت لحساب مصالح إقليمية لاعالمية، فقد باءت بكثير من الأوزار.

إن هذه السوق لم تقم لتقريب شقة الخلاف بين جهود اقتصادية مسالمة بريئة، تريد أن تعيش، وتدع غيرها يعيش.. بل قامت لحماية مصالح دول توشك على الضياع، ويوشك نفوذها الاستعمارى على الاندحار..

ففى المعاهدة المبرمة بين الدول الأوربية المشتركة فى هذه السوق، عزم على"نشر سياسة الاستعمار العامة فى السوق، سيما المناطق المتخلفة اقتصاديا فى شمال افريقيا وباقى مستعمرات الدول الأعضاء "..!

ما علاقة شمال أفريقيا بأوربا ..؟

إنه الاستعمار ينادى بعضه بعضا، ويشد بعضه أزْرَ بعض لِيواصل القدرة على بسط نفوذه.

فهذه السوق إذن، تهدف إلى الاحتفاظ بمستعمرات الدول المشتركة فيها، وبعد أن أوشكت على الإفلات

منها.

ولعل أوضح برهان على هـــذا تخصيـــص الـــدول المشتركة فى السوق مبلغ"١٨١" مليونا من الــــدولارات لاستثمارها فى مستعمراهّا خلال المرحلـــة الأولى مـــن مراحل الاستثمار ومدتـــها خمس سنوات.

وقد قامت بتوزيع الملايين المذكورة على مستعمرات فرنسا وإيطاليا، وبلجيكا، وهولندا ..

* * *

هناك تجمُّع واحد لاغير، هو الذى يضمن سـلامتنا ـ ذلكم هو تجمع البشرية كلها، من أجل أهدافها مجتمعـــة، ومن أجل مستقبلها مُوَحَّدا ..

أما تلك الجيوب التى تقام فى أرجاء عالمنا، متنـــافرة متنابذة فهى عامل تمزق وتصدع.. أكثر مما هى عــــامل توحيد وتجمع..

والتسويات الخاصة، مصدر قلق دائم.. ولابد مـــن تسوية عامة لكل المشاكل الرئيسية فى عالمنا.. وليس أحد

بقادر على مثل هذه التسوية سوى هيئة الأمم حين تتمتع بسلطانها المشروع كاملا.

عند ما قام التناوُش بين الصين والهند، أثناء زيارة "خروشوف" لأمريكا ـ تفاءلت بهذا التناوُش كثيرًا..

وقلت لنفسى: لقد جاءت هذه الحركة فى أوانها ـ لنعلم تمامًا أن الخلاف بين أمريكا، وروسيا ـ ليس وحده مصدر الخطر لعالمنا.. وإنما هناك مواطن خلاف أخرى وكثيرة، يمكن أن تجىء منها أخطار أكيدة.. بل ويمكن أن تسبب حرباً ودمارًا..

من أجل هذا؛ فمواطن الخلاف والنزاع جميعها، يجب أن تُواجَه وتعالج .

وذلك يقتضى أن تعيش "هيئة الأمم" أياماً تاريخية كبرى تنجز فيها مايلى :

- إبطال كافة الأوضاع الاستعمارية، وتحرير جميع الأمم .. والجزُر، والقواعد من مستعمريها .
- إرجاع جميع الحقوق المغتصبة إلى أهلها، ويبدأ

هذا بأهل فلسطين.

• تصحيح الوضع الدولى لكل الأمم، ويبــدأ هــذا التصحيح بفتح أبواب الهيئة لستمائة مليون صينى .!

• إلغاء جميع الأحلاف القائمة،وتحريم قيام أحـــلاف جديدة.

• تعديل ميثاق الأمم المتحدة، ومجلس الأمن تعديـــلا ينفى كل احتمال للتأثير على هاتين المنظمتين .

• تنظيم عمليات الإشراف الفعلى، والتــام علــى السياسة الخارجية لكل الدول وكذلك الثقافة الإنســانية، ثم الاقتصاد العالمى، تنظيما لايعنى دَمج نُظُمه فى اتجـــاه واحد.. وإنما يعنى تنسيق جهودها الحرّة تنسيقا يكفـــل إبعادها عن الشحناء، وإكسابها قوة أكثر ، للعمل مـــن أجل الإنسان.

• حراسة المبادئ الرشيدة التى ينبغى أن يسير التطور الداخلى للأمم، والتطور العام للإنسانية وفقها. وعلـــى رأسها الاحترام المطلق للحرية الإنســانية، والاســتجابة

التامة لكل مطالب المصير الإنسانى .

* * *

وبعد.. فقد قُلنا كلمات نحسبها مجدية .. وناديـنـا بأمور، الحاجة إليها بالغة .

وأكاد أبصر القارئ، وهو يتملل متسائلا: ونـــزع السلاح لماذا لم تحدثنا عن نزع السلاح ..؟؟!

وللقارئ العزيز أقول: لقد نزعنا السلاح فعلا بمـــا قدمنا من مقترحات، حتى لو لم يرد فيها ذكر ـ أيّ ذكـر ـ لنــزع السلاح.!

فالأسلحة، إنما تُصنع، وتشرع من أجـــل المـــآرب الخاصة للدول.. فإذا حولنا هذه المـــآرب الذاتيــة. إلى مآرب إنسانية؛ فقد التسلح كل مبرراته ومُسوغاته ..

إن تطهير المَصبِّ لايُجدى فتيلا، مادام المنبع نفســه يعج بالأقذار

وأذكى وسيلة لتطهير المصب، هى تطـــهير المنبــع أولا..

وقُوى السياسة، والمال ، والمعرفة ـ هى المنابع الــتى يبدأ بتطهيرها وتطويعها لأغراض التقدم الإنسانى، عملنـا وكفاحنا .

وهذا لايمنع أبدا مضاعفة الجهود التى تُبـذل اليـوم لتحريم الأسلحة، وتسريح الجيوش .

إن تبعات الرشد تنادينا إلى واجبات قـد تكـون شاقة.. بل هى شاقة فعلا.. ولكن لنذكر أن هذه المشـقة تنطوى على أعظم فرصة مُتاحة لنا..

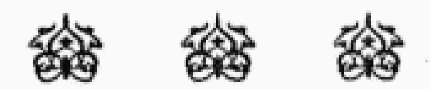
ولنذكر أيضًا، أنه إذا كنا نريد الحيـاة للجميـع؛ فسبيل هذا أن يصير العالم للجميع .

تنادى بالمبادئ الإنسانية السامية.. ونبصر ساسَة يتخذون مواقف، ظاهرها السمو، والبطولة الإنسانية، والجلال؛ ثم هى منطوية على نقيضها تمامًا..

كما نبصر مواقف يَتّسِم ظاهرها بالإخلاص لحقـوق الإنسان وهى فى حقيقتها مؤامرة محبوكة وخبيثة لقمـع

هذه الحقوق وتضليل مَسْعاها..

إن المبادئ التي يمكن أن تُصاغ منها سياسة صالحة، هي الجديرة اليوم بالسيادة، والذيوع، حتى يمكن الظفر بضمير سياسي جديد يتوخى المبدأ، لا المنفعة.. ويحترم الحق، لا الباطل.. ويعمل في خدمة البشرية مجتمعة. لا في خدمة قطاعات متنافرة.. وإقليميات متناحرة..



كتب المؤلف

١ـ من هنا نبدأ
٢ـ مواطنون .. لا رعايا
٣ ـ الديمقراطية، أبدا
٤ـ الدين للشعب
٥ـ هذا .. أو الطوفان
٦ـ لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ـ لله والحرية. (ثلاثة أجزاء)
٨ـ معا على الطريق محمد والمسيح
٩ـ إنه الإنسان
١٠ـ أفكار فى القمة
١١ـ نحن البشر
١٢ـ إنسانيات محمد
١٣ـ الوصايا العشر
١٤ـ بين يدى عمر
١٥ـ فى البدء كان الكلمة
١٦ـ كما تحدث القرآن
١٧ـ وجاء أبو بكر
١٨ـ مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ـ كما تحدث الرسول(مجلد)
٢٠ـ أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ـ رجال حول الرسول(مجلد)
٢٢ـ فى رحاب على
٢٣ـ وداعا عثمان
٢٤ـ أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ـ معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ـ عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ـ .. والموعد الله
٢٨ـ خلفاء الرسول (مجلد)
٢٩ـ الدولة فى الإسلام
٣٠ـ دفاع عن الديمقراطية
٣١ـ قصتى مع الحياة
٣٢ـ لو شهدت حوارهم لقلت
٣٣ـ الإسلام ينادى البشر
٣٤ـ إلى كلمة سواء (تحت الطبع)
٣٥ـ قصتى مع التصوف

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع بالقاهرة

رقم الإيداع ١٣٧٥٠ /٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-5732-37-9



قال مؤلفه:

"هذه الصفحات، ثمرة خواطر مُباركة..أفاءت عليها المحبة.. وتنحَّى عنها الغرض.. وتلقَّت من الماضى دَرسه.. وحَمَلها إلى المستقبل شوق حميم، ورجاء مُثابر..

وكاتب هذا الكتاب يؤمن أن العالمَ قريتُه.. والبشريةَ أسرتُه.. ولقد هداه إيمانه هذا إلى إدراك أنَّ على رأس واجبات الإنسان الذى أذِن الله له أن يُفكِّر، ويكتب - واجبًا جليلا بقدر ما هو محتوم.. واجبًا يدعوه إلى الاهتمام بمشاكل العالم، كما لو كانت مشاكله هو.. وإلى التفكير فيها، والتعبير عنها بنفس الحرارة والولاء اللَّذين يتناول بهما مشاكل وطنه، وذاته"..

خالد محمد خالد

المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

تليفون : ٧٩٥٨٢١٥ - ٧٩٤٦١٠٩ - فاكس : ٥٠٨٢٢٣٣